صلاح عيسى

تباريح جريح

شر البليّة ما يضحك..
أوجع الضحكات ما ينتهي بالدموع!

تاریخ جریح

□ **صلاح عيسى** : تباريح جريح
□ **الطبعة الأولى** : ١٩٨٨ .
□ الغلاف والخطوط الداخلية : **الفنان « حامد العويضي »** .
□ الناشر : **مكتبة مدبولي** ـ القاهرة .

صلاح عيسى

تباريح جريح

شر البلية مايضحك..
وأوجع الضحكات ماينتهي بالدموع!

مكتبة مدبولي
٦ - ميدان طلعت حرب - القاهرة

بيان من الحنظلة العرب

مع أن كل الأنباء فى كوكبنا هذا ، وفي زماننا هذا ، وفى أمتنا هذه ، أصبحت قابلة للتصديق ، فقد كنت متيقناً فى البداية أن الخبر مجرد كابوس جثم على أنفاسى ..هززت رأسى بقوة ، لكى أطرده عنى ، لكنه ظل مقيماً لا يريم . شبكت ذراعىّ خلف ظهرى . رفعت كتفىّ ـ كما يفعل « حنظلة » دائماً ـ ووقفت مثله أقرأ ـ ما بدا لى ساعتها أنه صحيفة ـ عنوان الخبر : إطلاق الرصاص على رأس « ناجى العلى » فى لندن !

تحسست رأسى . لم أجد دماً . قلت : صحف كاذبة تصدر فى زمن كاذب : من ذا الذى يستطيع أن يطلق النار على أشعة الشمس ؟ من ذا الذى يجسر على اغتيال نسمات الصبح ؟. ومن أين تأتى لأحد القدرة على اقتناص أَلَقْ الفرحة فى العيون ، واصطياد حبات الندى وهى تعبر المسافة بين السحابة وخفقة القلب : دافئة كدمعة المحزون ، حارة كضحكة المتخم بالهموم .

لا بد أن الذى حدث رسم من رسوم « ناجى العلى » . . ولا بد أن

« حنظلة » يقرأ ـ باستهانة وسخرية ـ خبر محاولة اغتياله مخطوطاً على جدران الأمة الآيلة للسقوط ، كما قرأ يوماً ذلك الإعلان الذى تتوسط صورته ، وتحتها : مطلوب حياً أو ميتاً . . لكننا ـ نحن الحناظلة العرب ـ كنا نقف معه لحظتها ، نقرأ الإعلان ونضحك ، لأننا ـ كالرمل كثيرون ، وكأشعة الشمس تولد كل فجر ، وكضوء القمر تطلع فى الظلام ، وكأجنحة الفراشات ، وسطح البحر ، وبحر الرملِ ، نمتد بلا انتهاء . . فمن ذا يجسر على أن يدركنا أحياء ، ومن ذا يتخيل أنه يستطيع أن يدركنا أمواتاً وهو حى !

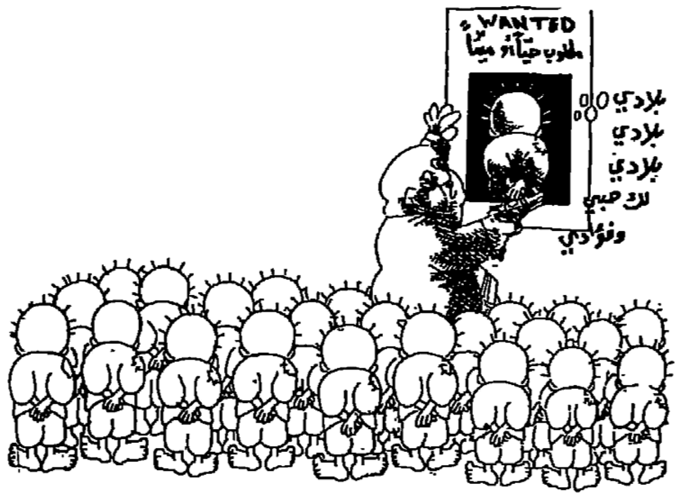
حين تيقنت أن الخبر جدٌّ لا كابوس ، وحقيقة وليس وهماً من أوهام سنوات المرارة والكمد ، أحسست بلزوجة الدم على جبهتى ، وحرارة الدمع على وجنتى ، ضمدتها تلك الضمادات الكثيرة التى تنتشر على وجه أبطال رسومه : رمز لعالم القسوة والإغتصاب والعدوان والاستضعاف . أما والخبر صحيح فمعنى ذلك أن المؤامرة قد تمت فصولاً ، فلم يبق إلاَّ « الضمير » ، لذلك حاولوا اغتيال « حنظلة » : براءتنا التى تقاوم التلوث ، وطُهرْنا الذى يرفض الدَّنس ، وأملنا الذى لا يتنازل عن المستحيل ، لأن هذا المستحيل هو ـ ببساطة الفطرة ـ حقنا ، تشهد بذلك أقدامه الحافية ، وملابسه المرقعة ، وجوعه الذى لا يشبع للحرية والعدل ، وأحضانه المشوقة إلى دفء الأمومة ، وبصيرته النافذة إلى حجب الغيب تتعلق بأول أشعة الشمس القادم من الظلام . .

وذات يوم كتب « طلال سلمان » أن ناجى العلى هو الاسم الحركى لفلسطين، وقبل ذلك ـ وبعده ـ كانت فلسطين هى الإسم الحركى لكل الجراح التى تأبى أن تنام أو تندمل ، وتستعصى على الموت . لذلك

أصبح ـ كما يقول محمود درويش ـ « كل الفقراء والمظلومين والمسحوقين والمحاصرين ، والمستقبل ، والثورة ، كلهم فلسطينيون » . .

وحول رايتها التف كل الحناظلة العرب فى أربعة أركان الأمة ، وأربعة أنحاء المعمورة ، يهتفون : بلادى . . بلادى . . لك حبى وفؤادى . فصَوَّروهم ، وعلقوا صورتهم على جدار منهار ، وكتبوا فوقها : مطلوب حياً أو ميتاً . ومن عجب أن أصواتهم ـ رغم الجوع لم تفقد حماسها ، وأنهم وقفوا ينظرون إلى الإعلان ، ويقرأونه ، كأن المطلوب ليسوا هم .

ولم يكن قد مضى على رحيل « ناجى العلى » من قريته فى الجليل الشمالى إلى مخيم « عين الحلوة » ـ فى جنوب لبنان ـ سوى أقل من خمس سنوات ، حين قرأت تلك القصة من قصص النكبة ، وما أكثر القصص التى تزدحم بها ملفاتها : ترك لنا الأجداد « ألف ليلة وليلة » فأضفنا إليها « ألف نكبة ونكبة » و « ألف نكسة ونكسة » ، فاضحك يا « حنظلة » رغم أوامر الأطباء ، قلبي يتوقك ضاحكاً ضحكتك



المريرة ، واعطني الرصاصة التي عبرت رأسك ، لأنه لا بد وأن يبقى ، وإلاّ كان معنى ذلك أنهم اغتالوا فى وضح النهار ضميرنا . .

أما تلك القصة من كتاب « ألف نكبة ونكبة » فبطلتها امرأة من « يافا » خرجت ذات يوم من أيام الهول تبحث عن مفر . . كان الغزاة قد طبقوا على المدينة تكتيك حصار حدوة الحصان ، فاحاطوا بها من ثلاث جهات . . يطلقون النار على كل شيء حيّ ، فلا يبقى إلاّ الفرار . . وخطفت تلك المرأة من يافا ما استطاعته من متاع خفيف ، وكومت طفلتها النائمة على الفراش فى أغطيتها ، واندفعت تجرى أمام الهول ، وهو يعدو فى إثرها : طلقات رصاص طائش تصيب الذين يحاولون الخروج عن النص المرسوم ، أو عن طريق الخروج من فلسطين ، لا العودة إليها ، وتصيب الذين يتباطأون فى العَدْو ، فيتعثر فيهم الذين اتخذوا أماكن خلفهم فى الطابور . . والكل يجرى . . وحين عبرت المرأة ، « جسر ألنبى » ، وأتيح لها لأول مرّة ، أن تتوقف عن العدو ، وأن تتنبه إلى ما هى فيه ، اكتشفت أن ما بين احضانها ليس طفلتها الرضيعة ، لكنها الوسادة . .

وكان طريق العودة إلى يافا قد أصبح مسدوداً . .

عشت أحلم أن يوماً سيأتي ، أزور فيه يافا . . أبحث عن قبر الشيخ عز الدين القسام ، أسأله عن تلك الطفلة التى أصبحت اليوم فى الأربعين ـ عمر النكبة ـ وكلما رأيت « حنظلة » ، الذى طردوه من قرية « الشجرة » إلى « عين الحلوة » ، أدركت أن حلمى ليس مستحيلاً . .

لذلك شددت الرحال وراء حنظلة ، فى كل الصحف ، التى تنقل بينها « ناجى العلى » ، فإذا اختفى ـ أو اختفت ـ رأيته دائماً : فى الأنهار

والأشجار ، وفى العصافير والفراشات ، فى قلب الليل المُدْلهِمّ وفى زغرودة الفرح الحزين ، فى فرح اللقيا ، وحرارة دمعة الوداع . .

ويوم حددت موعداً نهائياً أضرب فيه عن الطعام حتى الموت أو أعود إلى عملى الصحفى فى جريدة « الجمهورية » ـ وكنت قد فصلت منه عشر سنوات كاملة ، بسبب آرائى السياسية ـ فوجئت بـ« حنظلة » يتضامن معى على البعد ، ودون أن نلتقى ـ وهو ما لم يحدث ولم يعد ممكناً أن يحدث ـ ولم أستطع أن أقرأ مشاعرى بصوت عال . . لكن صديقاً لى ، قال :

ـ لقد اسعدنى تضامن ناجى العلى معك . . شعرت بالدفء ، وبأننا لسنا وحدنا !

لحظتها أدركت لماذا تعلقت عيونى به بين زحام البشر ، وفهمت من جديد ، مقولة « محمود درويش » ، أنه ـ ناجى ـ « لم يحمل العذاب من حادثة ، ولم يحمل الجرح من واقعه ، مفتوح على الساعات القادمة ، وعلى دبيب النمل ، وعلى أنين الأرض ، يجلس فى سر الحرب . . وفى علاقات الخبز » !

وكنت قد ولدت مع « ناجي » في العام نفسه ، وربما في تاريخ مقارب للتاريخ الذي بدأ يرسم فيه ، بدأت اكتب هذه التباريح ، وانثرها هنا وهناك : أنسجها من خيوط متعددة الأطوال والألوان ، تتداخل أزمانها فتجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وتخلط شيء من السياسة ببعض من الفكر ، بنماذج من البشر ، بشظايا من الذكريات ، بِنُتَفٍ من القهقهات ، وسحابات من الدموع والأوجاع ، تصب ـ كأنابيب الألوان ـ على الصفحات ، فإذا الحصاد : مرارة مُرَّة ، وكثير من الغضب ، واحتجاج



بمساحة العمر . . وحزن بعمق الجراح الطرية التي ما زالت تستعصي على الأندمال . . كنت ـ وما زلت ـ اعلق فأسها جميعاً في رقبة الذين طاروا بأشواق جيلنا الى ذرى الجبال ، ثم ألقوا بها بقسوة جلفة إلى جُبِّ الهزيمة والانكسار .

وكان الرصاص قد أطلق على رأس ناجى العلى فى الوقت نفسه الذى كان مخطوط هذا الكتاب جاهزاً للطبع ، فاستردته ، وقرأته ، فإذا بي اكتشف لحظتها فقط ، أنه أحد بيانات « الحناظلة العرب » ، وأن ناجي العلى ـ وَجَعُنا الذي لن يطيب . . وضحكتنا التي لن تغيض ـ هو أحق الناس بأن أهديه إليه . .

وها أنذا أفعل !

صلاح عيسى

القاهرة ـ مدينة الصحفيين ـ ٥ أغسطس ١٩٨٧

ثلاثية الأيام

الثقافة الحقيقية تعيش فى كل العصور ، وتصلح لكل الأزمان ، والكتب التى تبلور تجربة انسانية صالحة للقراءة فى خنادق الجنود ، وبجوار أعمدة المساجد وفى هياكل الكنائس ، وأيضاً فى الحدائق والمنتزهات .

وثلاثية « الأيام » التى كتبها « طه حسين » من هذه الكتب ، فهى ليست فقط نصاً أدبياً بالغ الشفافية والشاعرية ، وليست أول وأصدق سيرة ذاتية فى أدبنا العربى كله فحسب ، إنها فوق هذا كله وثيقة اجتماعية بالغة الثراء ، عميقة الفهم . فلا مبالغة إذن فى القول بأننا لا نستطيع أن نفهم الربع الأول من هذا القرن فهماً متكاملاً ـ في ظواهره السياسية والاجتماعية وحياته الفكرية والأدبية ـ إذا لم نقرأ « الأيام » .

وكثيرون من خصوم « طه حسين » ـ وحتى بعض أصدقائه ـ يحاولون أن يفهموا شخصيته بالتأكيد على تفرده . . فهو عند الخصوم مفكر مشاغب ـ وهو مصطلح يصف به المحافظون الثوار ـ ينطلق من عجز

فسيولوجى قادته محاولته لتعويضه إلى مخالفة المألوف ، والتصدى للمتعارف عليه من الأفكار والتقاليد والقيم . وهو عند الأصدقاء عبقرية فردية صنعت نفسها بنفسها ، لا علاقة للزمان ولا للمكان بتشكيلها ، فما فعلته كان نوعاً من ـ التسامى ـ والصعود فوق العجز .

وفى هذا وذاك خطأ كبير وبعض صدق ولكن الأكثر صحة أن هذا العجز لم يكن هو العامل الحاسم فى تحديد حجم الدور الذى أداه ، وإنما كان الرجل ابناً لعصره المصرى ومحصلة لتناقضاته ، إنه ليس نبتة برية وليس مشكلة نفسية فوق الماضى والمستقبل . . وحجم الدور الذى أداه كان عظيماً لأنه وظف مواهبه العقلية ـ التى لا ينكرها أحد ـ فى خدمة التيار الصاعد فى حركة المجتمع ، تيار المستقبل .

وحتى من حيث التقسيم الموضوعي فإن ثلاثية الأيام تتكامل حلقاتها لتصف حقباً متكاملة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعي . فجزؤها الأول ـ وقد كتبه في أوائل الثلاثينات ـ يتناول العقد الأخير من القرن الماضي ، فيصف مصر المحتلة التى اجهضت أحلامها فى الاستقلال والديمقراطية ، تعيش فى أسار الفقر والتخلف والجوع والخرافات ـ ويصف الجزء الثانى ـ وقد كتب عام ١٩٣٩ ـ السنوات العشر الأولى من القرن ؛ هذه سنوات اليقظة والفهم والشغب : محمد عبده ومصطفى كامل ولطفي السيد وعبد العزيز جاويش ، نقد الماضى شديد ، الجرأة في مواجهة الموروث من الأفكار والمعتقدات عنيفة ـ في الجزء الثالث والأخير ـ كتب عام ١٩٥٥ ـ نرى مصر فى سنوات الحرب الأولى بكل ما اثقلتها به هذه السنوات من اعباء وحركت فيها من تناقضات تفجرت فى يقظة عارمة عام ١٩١٩ ، تستقيم بها خطوات مصر فى طريق التحرر

والديمقراطية ، تلك مرحلة يستوى فيها « طه حسين » ناضجاً ، فيبدأ في ممارسة دوره العام محتشداً له بكل تأثيرات المراحل السابقة من عمره .

كان إجهاض الثورة العرابية اجهاضاً ليقظة عارمة فى الفكر والسياسة والاجتماع فخفتت إلى حين أحلام وزارة « البارودى » فى نشر التعليم وتخليص اقتصاد مصر من التبعية للسوق الامبريالية ، ودعوات النديم وفتحى زغلول إلى تصنيع البلاد ، ومزق دستور ١٨٨٢ ، وتغير البناء الاقتصادى لمصر ، فطوع لتكون مستعمرة ، عليها أن تزرع لا أن تصنع ، وأن تتلقن لا أن تفكر ، وأن تسمع لا أن تتكلم .

وفي قرى الريف ، واصلت الخرافات انتشارها وسيطرتها كجزء من ايديولوجية المستعمرين وحلفائهم ، وفى ظلها عاش طفولته ، يستمع إلى قصص العفاريت والجان ، وأساطير أبو زيد الهلالى واخبار عنترة والظاهر بيبرس ويتجول فى حلقات الذكر ويتابع أهل الطريق حتى حفظ وهو فى التاسعة « كثيراً من الأغانى وكثيراً من التعديد وكثيراً من جد القصص وهزله » ، وبعكس ما هو حادث فى أى بلد متقدم حيث تؤدى هذه القصص وأمثالها إلى توسيع خيال الأطفال ، فإنها كانت فى مصر عملية تعويض نفسى عن العجز المصرى ككل ، واستنامة فعلية للقهر الاستعمارى ، ذلك أن الأطفال لم يكونوا وحدهم الذين يصدقونها ولكن الكبار أيضاً !

وكان ينتمى إلى واحدة من الأسر التى نسميها « مستورة » ويسميها علماء الاجتماع « برجوازية صغيرة » : قوم يأكلون لا إلى حد التخمة ، ولكن قبل الشبع ببرهة وجيزة فيتيح لهم هذا أن يخرجوا من ذواتهم ليفكروا فى أمر العالم حولهم ، كان أبوه موظفاً صغيراً فى معمل السكر

عمره أكثر من ضعف مرتبه ، كثير العيال لكنه بالدأب والاصرار والتضحية نجح فى أن يحرم نفسه ليعلم أولاده .

عاش طه حسين مراحل حياته الباكرة ، كما يعيش معظم ابناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، يعطيه أبوه مصروفاً بين الحين والآخر ـ وليس كل يوم ـ ويأكل يومياً ، ولكنه « ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً يأخذ منه حظه فى الصباح ويأخذ منه حظه فى المساء » أما مظهره فإن « العين تقتحمه اقتاحماً فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم وفى نعليه الباليتين المرقعتين » وبسبب فقده لواحدة من حواسه ـ أى أداة من أدوات المعرفة ـ فإن العالم يقتحم وجدانه فى صورة خاصة ، تزيد خوفه وذعره ، وتجعل حياته حادة وتعطيه طابعاً خاصاً ، وتتيح له أن يغوص إلى أعماقه ، فهو يقضى الليل ينتظر عفريتاً من العفاريت الكثيرة التى كانت تعفر اقطار البيت ويخاف أشد الخوف « أشخاصاً يتمثلها قد وقفت على باب الحجرة فسدته سداً ، وأخذت تأتى بحركات مختلفة أشبه بحركات المتصوفة فى حلقات الذكر » . ولأنه خائف جداً وعاجز أيضاً ، فهو يستغرق فى أحلام تعويض للعجز ، يستعين فيها بالقوى الخارقة ، يحلم بخاتم الملك . ذلك الذى سيأتيه يوماً فيعبر به قناة صغيرة أمام بيته ، ويدخل فى تجربة مضنية بحثاً عن عصا « حسن المصرى » . التى قال كتاب « ألف ليلة وليلة » أن فى خدمتها تسعاً من الجن الأقوياء ، ويمضى ليالى طويلة.يبخر ويردد « يا لطيف . . يا لطيف » لعل الخدم يظهرون ، ذلك شىء يشجعه عليه أبوه أيضاً فهو الآخر عاجز وخائف ، يضنيه الأمل فى درجة أو علاوة ، تعينه فى أمر العيال ، وتعدل الموازنة بين عمر الانسان ومرتبه ، ويبركه العجز ـ عجزه وعجز ابنه الضرير ـ قد تأتى عدية ياسين بالأمل المرتجى !

كانت القوى الخارقة هى حلم مصر كلها أيامها ، فهذه القوى وحدها القادرة على أن تتجاوز بمصر ما هى فيه : يأكل الناس ويلبسون ، ويذهب المستعمرون ، ويحلو وجه الحياة القبيح ، ويعيش أهل الطرق الصوفية فى وجد ، بأن يتعلموا دون جهد لا يعتبرون إلاَّ العلم الصحيح ، وهو عندهم « العلم الدينى الذى يهبط على قلبك من عند الله دون أن يحتاج إلى كتاب بل دون أن تقرأ أو تكتب » .

وتجيء صداماته الأولى مع الجهل وليدة رغبته فى استكشاف العالم حوله ، فقد كان من « أول أمره كثير التطلع لا يحفل بما يلقى من الأمر فى سبيل أن يستكشف ما لا يعلم وهو يعبر القناة الصغيرة أمام بيته بلا حاجة إلى خاتم الملك يحمله أحد أخوته ، ثم يكتشف أن عرضها لا يزيد عن ساقية من الانفراج فيقفزها .

وكما يكتشف الواقع المادى حوله فهو يكتشف أيضاً الواقع الاجتماعى من خلال حركته الفعلية ، ويضع يده على التناقض بين الأقوال والأفعال ، وعندما يصنف علماء قريته يضع يده على حقيقة مرة . فهذا شيخ من الشيوخ « كان الناس مجتمعين على أنه أكل أموال اليتامى وأثرى على حساب الضعفاء» ومع ذلك فقد « كان يكثر من ترديد هذه الآية وتفسيرها : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ هؤلاء بعض حملة كتاب الله ـ أى فقهاء القرى ـ يفسرون القرآن جهلاً وغباءً وإساءةً ، يسأل أحدهم يوماً عن معنى الآية الكريمة : ﴿ **وخلقناكم أطواراً** ﴾ فيجيب مطمئناً أي خلقناكم كالثيران لا تعقلون شيئاً . ويقسم شيخ الكتاب أمام أبيه كاذباً ، ويحلف بالطلاق ، وحتى الأب والأم يكذبان . ويشعر أن الحياة مملوءة بالظلم

والكذب « وأى فرق بين الأب الشيخ يقسم ويحنث وبين سيدنا يرسل الطلاق والإيمان إرسالاً وهو يعلم أنه كاذب ؟» .

وبسرعة يكتشف الرابطة بين كلِ هذا : أن عقلية أهلِ الريف التى يكونها أهل الطريق ـ ومعظمهم جهلة بالإسلام جهلاً مزرياً ـ هى عقلية تؤمن بالخرافة وليس بالدين ولا بالعلم ـ من هذا يستقر فى وجدانه أنه لا فرق بين المتصوف والساحر « أليس الصوفى يزعم لنفسه أنه يتعدى حدود القوانين الطبيعية ويأتى بضروب الخوارق والكرامات ، والساحر أليس يزعم لنفسه القدرة على الإخبار ـ بالغيب وتجاوز حدود القوانين الطبيعية أيضاً » .

ويضع يده على موطن الداء « هناك فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها اثماً » . . بهذه الفلسفة الآثمة يفسر فقده للبصر ، « أصابهُ الرمد فأهمل أياماً ثم دعا الحلاق فعالجه علاجاً ذهب بعينيه . . وعلى هذا النحو فقدت أخت له الحياة » !

وفى الصراع ضد هذه الفلسفة الآثمة قضى « طه حسين » عمره ، وخاض معركتة الباسلة ، معلياً شأن العلم والعقل ، واثقاً أن التغلب على العجز لا يكون بالتغرب إلى عالم لا يتصل بالواقع ، وإنما بالتعامل مع هذا الواقع وشحذ قواه للتغلب على الخوف والعجز والقهر .

وهو يصوغ فهمه هذا بوضوح فاستقلال الجماعات لا يهبط عليهم من السماء ولا يطلع عليهم من الأرض ، وإنما يكتسب اكتساباً ، وتبتغي إليه الوسائل ، وتسلك إليه السبل التى تستقيم بأصحابها حيناً وتلتوى بهم حيناً آخر .

وفى الأزهر ، يعيش حياة شبيهة بما كان يعيشه فى قريته : يأكل

الفول النابت ليل نهار ، ويطارده الصبية القاهريون يسخرون من زيه هاتفين « يا مجَاور عِمَّتك دابت من الطرشي والفول النابت » ويساكن زملاءه فى غرفات مكتظة يعيش فى بعضها أكثر من عشرين طالباً من فقراء الفلاحين جاءوا يدرسون ويتعلمون ، يعيشون على خبز الجراية . مع أخلاط من العمال وصعاليك المدن .

لكن مغامرته الفكرية العظيمة تجيء من أنه أدرك الأزهر فى عصر كان التعليم فيه قد تخلف وتدهور بشكل جعله يراه شبيهاً بما كان يرى فى قريته ، وكانت المحاولة العُرابية الرائدة لتحويل الأزهر إلى مؤسسة جامعية ـ كما كان فى الأصل ـ يُنتخب شيخها الأكبر ومعاونوه. ، قد فشلت ، وكان الشيخ « محمد عبده » الثائر العُرابي القديم قد عاد يقاتل بضراوة من أجل انقاذ هذه المؤسسة العظيمة من براثن الجهل والخرافة والرطانة الفارغة من أى محتوى ، ويضيق « طه حسين » ـ كما كان يضيق « محمد عبده » ـ بالكتب الأزهرية المليئة بالحواشى والتقارير و« العنعنات » ، ويذهله أن شيخاً من شيوخه يفخر بأن الله قد من عليه أنه يستطيع أن يتكلم ساعتين فلا يفهم أحد منه شيئاً ولا يفهم هو عن نفسه شيئاً . .

لكنه وسط كل هذا يكتشف طريقة ويتتلمذ على شيخ من بقايا ثوار العرابيين فى الأزهر . . هو الشيخ « سيد المرصفى » : هذا رجل كَلِفٌ بالحرية . شارك فى ثورة مصر الديمقراطية ودفع بعض الثمن ، واكتفى شأن الثوار الذين تنفذ طاقتهم بأن يورِّث الثورة للأجيال الجديدة ومنه يتعلم « طه حسين » الأدب ويكتب : « وما أعرف شيئاً يدفع النفوس الناشئة إلى الحرية والاسراف فيها احياناً كالأدب ، وكالأدب الذى يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفى يدرسه لتلاميذه . فقد حرر الشاعر أولاً . . والراوى ثانياً والشراح بعد ذلك » .

وتكثر مشاغبات « طه حسين » فى الأزهر : ينتقد الشيوخ ، ويكشف جهلهم ويتطاول على مقامهم ، ويصرح بآراء جريئة ويستدعيه شيخ الأزهر . فيوبخه ويقول له : ولكنكم تدرسون على « الشيخ المرصفي » كتاب الكامل للمبرد . وهو من المعتزلة ودرس كتابة إثم .

وإذن فهذا مربط الفرس إن شيوخ الأزهر يرفضون كل المد... العقلانية فى الفكر الإسلامى فلينف المعتزلة من الأزهر هؤلاء الذين ... أن الله لا يصدر عنه إلاّ ما هو فى مصلحة عباده ، والعقل هو المص...

ولقد كان ممكناً أن يستمر « طه حسين » فى الأزهر . غير أن ... كانت تتفرخ فى حناياه . فبعد هذه الحادثة لفت شيخ الأزهر ... المرصفى بألّا يدرس «المبرِّد». وذهب طلبته إليه يسخرون ... الذين يجهلون الإسلام ويسيئون إليه . فإذا بالشيخ ية

ـ لا . . لا . . . عاوزين ناكل عيش .

ويحزن طه حسين كما لم يحزن طول عمره منذ كان يبعثه الأزهر فى النفس من أحزان » إن الثوار يريدون ... عيشا . وإذن فعلى الدنيا العفاء . .

ولعل هذه الكلمة هى التى قادته بعد ذلك إلى الجامعة . لا ليأكل عيشاً ولكن ليتحرر من القهر والعجز والخوف أكثر ، وكان يدرك أن الجامعة هى قلعة لحرية العلم وحرية البحث كذلك كان الأزهر عندما كان جامعة . ويوماً يسألونه عن رأيه فى رسالة الدكتور « منصور فهمى » وكان قد اتهم فى دينه بسببها فقال فى غضب ساخر :

ـ كنت أظن أننى فى الجامعة حيث لا يحاسب الناس على آرائهم فإذا أنا أرانى فى الأزهر لا أُسأل عن رأى نفسى . وإنما أُستفتى فى رأى غيرى من الناس .

فى الجامعة يتماسك ويتبلور فكره أكثر لكنه يدرك ـ على يد اساتذته المصريين الذين تعلموا فى أوروبا ـ أن ذلك لا يعنى فناءه فى العلم الأوروبى . وأن ثقافته الشرقية تضم عناصر أصيلة ينبغى أن يحافظ عليها وأن « يأتلف مزاجه ائتلافاً معتدلاً من علم الشرق . وعلم الغرب جميعاً » .

ويرحل إلى باريس يدرس كثيراً ويأكل قليلاً . ويتأثر إلى درجة كبيرة بالبروفسور (دور كيم) ويأخذ عنه التأثر بفكر السان سيمونيين الذى يعتمد سيطرة العلماء على مقدرات الشعوب لأنهم القادرون على المواءمة بين حاجات الناس وطاقاتهم ، وتسيطر عليه هذه الفكرة زمناً ـ فتقربه إلى « الأحرار الدستوريين » وتبعد به عن « الوفد » بحشده الجماهيرى لكنه سرعان ما يستقيم ويتكامل موقفاً وفكراً .

وتقوم الثورة وهو فى باريس ويجىء سعد زغلول إليها من منفاه حاملاً آمال مصر فى الحرية والتقدم ويلتقيان : اثنان من أرض مصر من قرية واحدة رغم تباين الأسماء . جاورا زمناً فى الأزهر وعملا فى الصحافة ردحاً من الزمن وعاشا بالقرب من زمن التنوير المصرى على تعقد خريطته .

بين الاثنين يدور حوار غريب . كان سعد حزيناً . خفتت أحلام الاستقلال وأوصد مؤتمر الصلح أبوابه أمام الوفد المصرى ، الذى سافر يحمل آماله فى ضمير العالم ويطلب تنفيذ مبادىء « ولسن » ، كشف ضمير العالم عن خدعة كبرى ويعرف « سعد زغلول » أن « طه حسين » يدرس التاريخ فيسأله :

ـ أو مؤمن أنت بصدق التاريخ من لهجة السؤال يرد « طه حسين »

بعلامة استفهام أخرى :

ـ لماذا اليأس والشعب قد استيقظ .

ويقول سعد زغلول بأسى بالغ :

ـ وماذا يستطيع الشعب أن يصنع وهو أعزل لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فضلاً عن أن يثور على أصحاب القُوَّة واليأس .

ويؤكد « طه حسين » أن الشعب إذا كان اليوم أعزل فسيجد السلاح غداً . . فيسأله الزعيم :

ـ وأين يجده ؟! من يأتيه به وهم يحرسون الحدود .

وبسخرية مريرة يقول طه حسين :

ـ إن الذين يهربون لنا الحشيش يستطيعون أن يهربوا الأسلحة . .

ويغرق سعد فى الضحك . ويقول وهو ينهض :

ـ ألا تعلم أن الذين يسمحون بتهريب الحشيش سيراقبون تهريب الأسلحة .

ويفترق الرجلان العظيمان . وقد وضعا القضية فى وضعها الصحيح .

هذان رجلان كَلِفا بعلامات الاستفهام . وعذاب الانسان الباحث عن عالم النشوات العليا يبدأ بعلامة استفهام . ويتركان درسهما الكبير : فكروا . . ناقشوا . . استبدلوا الحشيش بالوعى . اهجروا علامات التنصيص . . واعشقوا علامات الاستفهام وعلامات التعجب ساعتها تمتلىء بالسلاح أيديكم .

(*) « الجمهورية » القاهرية فى ديسمبر ١٩٧٣ .

غضب الجيل الآتى ليس وهما

تـونس العـاصمــة ، مـدينــة جميلة ، تجمـع بين بيــاض القلوب والمبانى ، واخضرار العيون والروابى ، ولا يختلف ضباط الجوازات فى مطارها عن أمثالهم فى كل مـطار عربى ، فهم يبتسمـون لكل أوروبى . ويكشرون فى وجه كل عربى ، ويتشككـون فى أى صحفى يستقبلونه ، ليس لأن الصحفيين لا يقولون الحقيقة ، بل لأنهم ـ أحياناً ـ يقولونها :

أما المناسبة التى انتزعتنى من مشاغلى ، فالقت بى إلى قلب تونس وعيونها . فكانت مؤتمراً عنوانه : « الغزو الثقافى الامبـريالى الصهيـونى للأمة العربية » . ولأننى كنت واثقاً أن المؤتمر سيكون مَكْلمة. عربية من طراز فريد ، فقد اتخذت كافة الاحتياطات الضروريـة لحمايـة رأسى من صداع المكلمات العربية ، فأعضاء المؤتمـر ليسوا عـرباً فقط ، ولكنهم مثقفون أيضاً ، صنـاعتهم التى يأكلون منهـا خبزاً ـ وأحيـاناً جـاتوه ـ هى الكلام ، وهو ما يؤكد أننى مقبل على مكلمة من النوع الثقيل ، تتـطلب قوة هرقل . . وصبر أيوب ونصف كيلو من الأسبرين !

بعد يوم واحد من وصولى إلى تونس ، كنت قد انغمست فى المكلمة بكل أذنى ، وبجزء من لسانى ، وتنازلت مختاراً عن خطة وقائية بديلة وضعتها ، لتذويب عناء الفصل والتحفظ فى روابى قرطاج ومياه المتوسط . ولم أتنبه - إلا وأنا أحزم حقائبى عائداً إلى القاهر - إلى أننى كنت معتقلاً ، لا أغادر الفندق إلا إلى قاعة المؤتمر ، ولا أتركها إلا لتناول الطعام ، وسواء كنت هنا أو هناك فأنا وغيرى نتكلم ، أو نستمع لمن يتكلم ، نتكلم فى جلسات المؤتمر ، وفى مدخل قاعة « ابن زشيق » التى تعقد فيها الجلسات ، حيث احتشد حولها مئات من طلاب الجامعة التونسية ، يقيمون - على قارعة الطريق - حلقات نقاش مع « الدكاترة » الذين دعوا إلى المؤتمر ، لا تترك صغيرة أو كبيرة إلا وطرحتها أرضاً بعلامات الاستفهام ، وعلامات التعجب ، جاءوا . . يتحاورون مع « عقل الأمة » القادم عبر نقاط الحدود المزدحمة بالمخافر وضباط الجوازات ، والمشتعلة بنيران الخلاف ومشاكل الأنظمة !

ولا شىء يمكن أن يغريك بالاندماج فى « مكلمه » إلا إذا اكتشفت - مثلى - أنك تتكلم مع عقل الأمة العربية بكل خلاياه وتروسه ومخزوناته ، بأجياله المتتابعة من « حسين مروة » اللبنانى الذى ولد قبل الحرب العالمية الأولى إلى « فاطمة محمود » الليبية التى ولدت بعد حرب ١٩٥٦ ، وبتياراته الفكرية المنفصلة المتشابكة والمتصارعة والمتشاكسة .

. . زحام من الأفكار والعقائد والآراء : قوميون عرب وقوميون اسلاميون ، ماركسيون بكل درجات الطيف . . لا منتمون . . ويائسون . . وعدميون . . وأنصار غرب مبهورون . . ولم يقتصر الأمر

على هؤلاء ، فقد احتل مئات من المثقفين التونسيين الشبان ، مقاعد القاعة وممراتها لا يملون من الوقوف ، ولا يكفون عن التدخل فى المناقشات . ولأنهم نموذج للجيل الآتى وارث مجد الأمة من « وعد بلفور » إلى « وعود كامب ديفيد » . فهم متحمسون ـ وهم قد ملوا دور المستمع ، لذلك تدافعوا يثبتون أن لهم ألسنة كما أن لهم آذاناً ، لحظتها ـ كما يقول ابن اياس ـ خلعت البراقع . . وفشى الكلام فى المواقع .

أما الكلام الذى فشا فى المواقع ، فهو كلام شباب ، لذلك فهو كلام عنيف ، اختار أقرب الضحايا إليه وهم أعضاء المؤتمر أنفسهم ، دكاترة « المكلمة » ، المتخشبين المتكلسين ، دود الورق ، ندامى الأنظمة : جيل النكسات والهزائم ومعاهدات الصلح ، مثقفوا التواطؤ على الهزيمة ، والتحالف مع صناعها . واخرجوا محافظكم يا أيها الدكاترة المؤتمرون ، وسوف نجدها محشوة بنقد الأنظمة الصعب ، وبمقالات المدح لمن يدفعون ، أو مقالات الصمت على ما يفعلون . يا جيل القوادة الفكرية والدياثة السياسية والخنا الايديولوجي . . وكم ذا من جرائم ارتكبتها باسمك ـ يا كامب ديفيد ـ الأنظمة التى تعارضك ، ابشع حتى من جرائم من صنعوك ومن أيدوك ، أما الجريمة الكبرى التى ارتكبها مثقفوا الجيل المنتكس المهزوم المشتوم ، فهى الصمت على كل ما تفعله أنظمة العرب ، بعرب الأنظمة ، فقد أنار الله بصيرة حكام العرب ، فانجزوا مهمة تنمية المشانق والمحارق ومضاعفة مصانع السياط الالكترونية والسكاكين التكنولوجية قاطعة أيدى الكتاب والمثقفين والمفكرين وألسنة الرعايا الذين ليسوا مواطنين أما قطع يد السارقين فهى مهمة مؤجلة ليوم الحشر العظيم !

بأحزان الماضى وضباب الحاضر وبمطارق المستقبل ، انقض الجيل

الآتى على « عقل الأمة » يستجوبه ولا يستفتيه ، ويحاكمه بلا دفاع . فالتهمة ثابتة أو هي شائعة فى الجو والهواء ، وفى كل تضاريس خريطة الوطن ، من المحيط المزدحم بالبوارج الأمريكية إلى الخليج المشتعل بحرب المنتصر فيها ، مهزوم .

وهى واردة فى تلك المطبوعات الفخمة الضخمة المرصعة بصور الحكام مبتسمين سعداء كأن الأمة بلا هموم ، ولم لا ؟ ألا يحصل كل منهم على ٩٩٪ من أصوات الناخبين فى كل انتخابات ديمقراطية سليمة نزيهة ونظيفة بنسبة ١٠٠٪ .

كان المؤتمر ـ قبل أن ينقض عليه الجيل الآتى ـ واقفاً على رأسه فاعتدل ليقف على قدميه ، أى أنه أصبح قادراً على التجول فى الواقع ومعرفته ، وهذا كاف إلى أن يأذن الله بشىء آخر . وهكذا تتالت الكلمات والمناقشات تحفر رافداً ثالثاً لتلك الغزوة الامبريالية الصهيونية التى تهدد الأمة ، فإذا بالغزوة أيضاً عربية ، وهى ـ ككل الغزوات ـ ذات ايقاع حماسى لكنه راقص ، تنطلق كالفيضان من قنوات الاذاعة المرئية ومحطات الاذاعة المسموعة ، تتغزل فى حكمة حكامنا وشجاعتهم وبرهم بشعوبهم ، وتوحد ـ من فرط حماسها ـ العرب المستعربة بالعرب العرباء فى كيان واحد هو العرب البلهاء . الذين لا هم لهم إلّا مدح حكامهم والتغنى بأفضالهم ومآثرهم ، فإذا سأل مستنكر : وأين هى تلك المآثر ؟ . افأمامه خريطة الوطن الكبير تُسبِّح بحمد الحاكمين ، ترفرف عليها اعلام الوحدة والتحرر ـ والعدل الاجتماعى ، ليس فيها قاعدة أجنبية ولا تسهيلات لفرق محمولة جواً أو عائمة بحراً ، لا يوجد على أى خط من خطوط « عرضها » تابع أو متواطىء أو متساهل أو مستسلم ، وحاشا لله أن

يكون بين ربوعها الفيحاء جائع أو محروم أو سائل أو مهضوم على رأى الشيخ المنفلوطى ، أسكنه الله فسيح جنانه !

ونحن المثقفين ـ أو بعضنا ـ أصحاب فضل باهر فيما حققه الوطن من انجازات رائعة تنطق بها خريطته الملونة باحمرار ـ الدم وسواد النفط وأثر السياط على الجلود . فكم من حاكم سمّينا تجبره تواضعاً ، وفسقه طهارة ، واقتحامه خجلاً ، وتألهه خشوعاً ، وحمقه حكمة وفلسفة : فنحن الآباء الشرعيون لهذا السخف الإعلامى القاتل والممل ، لأننا كهنة المعابد ، حراق البخور ، مزخرفو القبح ، صناع العروسة من البوصة ، والشربات من الفسيخ ، ونحن نقود شعوبنا فى « موالد الأنظمة » لكى تردد أهازيج المدح لمن يحكمون واغنيات الخضوع لم يتسلطون ، ومن لا تهزه أناشيد الكهنة ، ترعشه سياط الجلادين ، ومن لم يرض بذهب المعز ، فسيفه ـ والحمد لله ـ مسلول ومسموم !

وهذه الأمة المشغولة بالتغنى بأفضال حكامها والرقص فى موالدهم ، تواجه هموماً لا أول لها ولا آخر : هموم الفقر الزائد والغنى الزائد ، وأطماع الحيتان فى بحر السياسة الدولية . ومن بين هذه الهموم ـ أو على رأسها ـ ذلك الغزو الثقافى الصهيونى الامبريالى الذى انعقد المؤتمر لبحثه والكلام فيه ، فالحدود الثقافية بيننا وبين العدو خلت من كل حماية : صمتت المدافع على جبهات القتال مع الامبريالية والصهيونية ، وتبادل الجالسون على القمة ـ سراً أو جهراً ـ قبلات الحب والصفاء ، وحوّل العدو داناته إلى جبهة الثقافة والوعى ، تنطلق على كل فكر مستنير ، وتصيب كل موهبة حقيقية تنتمى لتراب الوطن المشبع بدم سفكة الغزاة والطغاة ، وتنفجر فى كل خلية ثقافية حية أو عصية على الموت ، فى

مناهج التعليم ومراكز البحث ومؤسسات الإعلام والاتصال ودور النشر والطباعة ، وكل وسائل التنشئة الاجتماعية ، وتتناثر شظاياها أقماراً صناعية وعلماء جواسيس ، ومحطات استشعار عن بعد ، واتفاقات تعاون أكاديمى ، تمسح تقاليدنا وأنماط سلوكنا وتاريخنا السياسى والاجتماعى ، ومزاجنا النفسى والجنسى ، ونزوات حكامنا لترسم الخطط التى تمكنها من تحقيق هدفها الواضح الصريح : أن نفقد كل شعور بالانتماء لأمتنا ووطننا وأن يضيق الانتماء من « الطبقة ـ الأمة » إلى « القطر ـ الطائفة » ثم إلى « النظام ـ العائلة » آنذاك تتضاعف الاعلام المرفوعة على صوارى الجامعة العربية الموزعة بين تونس والقاهرة وتنضم إليها رايات مارونية وشيعية وسنية ودرزية وقبطية وزيدية ، فتأمن الدولة الصهيونية إلى الأبد ، ويبارك البابا ريجان والحاخام بيجين هذه الكيانات الطائفية !

أما وقد أصبح المثقفون العرب ـ بالترغيب والترهيب ـ طبولاً فى مواكب السلاطين ، وأبواقاً فى بلاطهم ، فقد افتقد الوطن حراس الحدود الثقافية ، وهو أشد ما يكون احتياجاً إليهم ، وربما لهذا السبب كان احتشاد الشباب التونسى حول قاعة « ابن رشيق » . احتشد الغد المسؤول المهموم بأمته ، الغاضب لها وعليها ، القلق على مسيرها ومصيرها ، احتل القاعة والمقاعد وغزا الميكرفونات والسماعات . وأربك جدول الأعمال ، وأقام محكمة بلا دفاع فهو نفسه نموذج على ما صنعت الغزوة الامبريالية الصهيونية بعقلنا ووجداننا : تتلكأ المفردات العربية على لسانه وتزاحمها المصطلحات الفرنسية ، الكتب العربية فى مكتباته مجرد هوامش محدودة على المتن الفرنسى الذى يحتل رفوف المكتبات ، وأروقة المتاجر ، ولافتات الشوارع .

والمشكلة أمام هذا الجيل الذى سيرث الأمة قبل أن تغيب شمس القرن معقدة : إذ كيف يوحد الأمة الموزعة بين « الفرانكو - آراب » و « الانجلو - آراب » و « الامريكو - آراب » ، وأخيراً وليس آخراً « الاسرائيليون - الآراب » !

فى مواجهة هذا التحدى فرض الشباب الغاضب وصية الغد على جدول أعمال المؤتمر ، ونصها : أن يكف المثقفون العرب عن ذلك التحلق فى كواليس الأنظمة ، وأن يضربوا عن أكل خبز السلاطين ، فإذا كانت الأنظمة جادة فى مواجهة هذا الغزو الثقافى الامبريالى الصهيونى فلتكف عصا قوانينها غير الديمقراطية ، وأعرافها الغليظة غير المتحضرة عن عقل الأمة المحاصر والمضغوط والذى يغسل مخه كل صباح بالكذب والزيف والادعاء ، ولتطلق حريات العقيدة والبحث العلمى والتنظيم ، ولتقم من المستشفيات بقدر ما تنشىء من السجون .

سعيداً قلت لنفسى : غضب الجيل الآتى ليس وهماً ، وان شابه - ككل غضب - بعض ظلم ، وآية ذلك أن الجيل الملعون المشتوم المتهم بالتفريط ، جاء إلى المؤتمر حاملاً على جسده آثار ما ناله من سياط ، وما افترش من صخر الزنازين . تذكرت ذلك وأنا أمنع دمعة طرقت أبواب العين ، حين رأيت - بعد عشر سنوات من النفى - « محمود أمين العالم » و « أديب ديمترى » و « غالى شكرى ».

بعض حراس الحدود فى المنفى ، وبقيتهم فى زنازين الحدود . . لو كنت - والعياذ بالله - حاكماً عربياً لتقلصت الابتسامة فى صورتى الرسمية ، حين أدرك أن غضب الجيل الآتى ليس وهماً ، تلك الحقيقة التى لا تخدعها ابتسامة . . ولا تلغيها . .

(*) الأهالى - العدد ٣٣ فى ٢٦ مايو ١٩٨٢

ضحكات من زمن الموت غما

انفتحت فى أذنى ثغرة صنعتها كل إذاعات العالم . تسللت أصواتها ترش غرفتى بالدم . على الأرض سالت خيوطه . طال رذاذه الأوراق وسن القلم . فى التليفون قال رئيس التحرير :

ـ يلاحظون أن يوميات « الأهالى » كلها شجن . . فتفاءل الله يخليك !

قلبى حزين يا أبا جاسر فمن أين آتى بالكلام الفرح ؟ .

دونك الأمة من المحيط إلى « الخليج » فدلنى على شىء يدعو للفرح . أما الدم فترشه أصوات المذيعين ليطول أوراقى. وسِنَّ القلم فمن أين آتى بالكلام الفرح ؟ .

على مكتبى بطون مبقورة وأذرع مبتورة وعيون ماتت دون أن تجد من يسبلها ويتلو عنها الشهادتين ، حين حم القضاء .

جميلة هى عيون اللبنانيات والفلسطينيات ، فمتى يأتى الزمن الذى نفرغ فيه للغزل ، نمرح فى نوار العيون ، نشم فيها أريج القدس وعطر

يافا ، وماذا أفعل بنظرات الرعب التى تملأ غرفتى ، تزحم الأفق من المحيط إلى الخليج ، فمن أين آتى ـ أبا جاسر ـ بالكلام الفرح .

إليك نشرة أنباء من زمن الكدر الذى نعيشه : دفعت اسرائيل للمعركة بدبابات وطيارات ودانات ومجنزرات ، وهرول الزعماء العرب إلى الحلبة وفى يدهم « مختار الصحاح » و « المصباح المنير » و « لسان زعماء العرب » ـ بارك الله فيه ـ طويل ، لكن أيديهم قصيرة ، ولو أنها ليست كذلك على أبدان الرعية المحكومة بالحديد والنار والسيف البتار ، الذى لم تره أبداً مشهراً إلاّ عند فض مظاهرات الجياع . . أما اسرائيل ، فليس لها عندهم إلاّ قرارات الادانة وبيانات الشجب ، وبرقيات الشحاذة .

المسرحية من النوع العبثى لذلك اقتحم « نابليون » غرفتى ، وقف على خشبة المسرح أطل على مشارف القاهرة بعد أن هزم جيش « مراد بك » ، وسأل عن المقاومة المحتملة فى المدينة ، قالوا له : لم يعد هناك سوى بعض شيوخ الأزهر يقرأون « البخارى » . فاهتم « نابليون » بالأمر وأخذ يسأل عن مدفع « البخارى » هذا ، ما هو مداه ، وما عيار داناته ، وهل لدى المصريين مخزون من ذخيرته !. وفى الصبح أعلنوا القاهرة مدينة مفتوحة .

عبرت « جولدا مائير » أمام مكتبى ، قالت إنها منزعجة لأن الأطفال الفلسطينيين يولدون كل صباح ، وحين التقى بها « السادات » فى العام ١٩٧٧ ، قال مبتسماً : كيف حالك يا جولدا ؟ قالت إنها ما تزال منزعجة لأن الأطفال الفلسطينيين يولدون كل صباح . ابتسمت للسادات ، اضافت : كنت انتظر هذا اللقاء منذ زمن طويل .

ويوم أعلنت دولة اسرائيل رسمياً غضب الأرهابى « بيجين » لأنها لم

تقم على كامل الأرض التى وعد بها الرب آل اسرائيل فصرخ حانقاً :

ـ لقد قسم الوطن . . وطن اليهود .

ومع ذلك وجد بعد ذلك التاريخ بثلاثين عاماً كاملة ، عرباً عقلاء ، حكماء ، وفلاسفة ، متحضرون ، وقعوا معه معاهدة سلام عليكم وكان بيجين نفسه ، أما هم فلم يكونوا أنفسهم ، فحدثوه عن السلام ، وعن العقد النفسية ، أما هو ، فقد هز رأسه ، لأنه لم يغير كلمة واحدة مما قاله ، لذلك أصر على أن يوقعها وعلى رأسه طاقية الحاخامية دليل على تمسكه بوعود الرب !

وإليك هذا المشهد الذى يتحدى عبث الدنيا : أريل شارون جنرال لبنان السفاح ، كان هنا فى القاهرة قبل عام يتفاوض مع وزارة الزراعة لكى « يعمر » مثلث الفيوم ـ بنى سويف ـ الوادى الجديد ، وحين طالت المفاوضات ذهب ليعمر لبنان بآلياته ومجنزراته فاستعدوا يا أهالى الفيوم لاستقبال المعمر الصديق ، بعد أن ينهى مهمته فى لبنان ، ألا تسألون عن الرخاء الذي وعدكم به « المرحوم » منذ وقع اتفاقية السلام ؟ قادم هو فى الطريق فاقطعوا الوقت فى التزاحم أمام أبواب الجمعيات الاستهلاكية حتى يدرككم « شارون » برحمته .

قضى الجنرال الصديق ليلة فى أحد فنادق بيروت ، فاحجزوا له واحدة فى فندق بحيرة قارون ، وتأكدوا من وجود غرف فارغة فى « شيراتون الجزائر » ، و « هيلتون الكويت » . . و « انترناسيونال تونس » !

سيخطب فيكم شارون ، يقول ، لافض فوه :

ـ استديروا يا عرب . . اصطفوا جميعاً ، ٨٠ مليون بل ١٥٠ ، خذوا هـذا الكف الساخن على قفاكم العريض الممتد من الخليج إلى

المحيط ، ولن يجسر أكبر من فيكم إلاّ على إصدار بيان شجب وإدانة ، دعوا لنا لبنان والجولان ويهودا والسامرة ، وكلوا أنتم فراخ توفيق عبد الحى بالهناء والشفاء .

أما مشهد الختام فسيمثله كالعادة اعلام فاجر ، سيخرج كهنته غداً أو بعد غد ليقولوا : نحن انتصرنا فى الحرب الخامسة مع العدو . قتل الا ائيليون وجرحوا ١٥ ألف فلسطينى ولبنانى أما نحن ، فدونكم أوراقنا مسودة بكل مياه البحار من المحيط إلى الخليج . . قصائد ومقالات وبيانات شجب وإدانة ، نحن شتمنا اسرائيل فوا نصراه ، وأصدرنا ٣٠ بيان إدانة ، فوا فرحتاه وطبقاً لحسبة برما ، تكون خسائرهم ضعف خسائرنا . . ثم لا تنسوا أننا انتصرنا على جبهة الرأى العام العالمى ، فاثبتنا له للمرة العاشرة بعد المليون ، أن اسرائيل دولة عدوانية لا تريد السلام ، والرأى العام العالمى ، يؤمن بالعلم ولذلك لا يمكن اقناعه بأن اسرائيل عدوانية إلاّ إذا متنا وقتلنا ، أما الجرحى فلا يعتبرهم أدلة اثبات كافية على عدوانية اسرائيل . أما أهم الانتصارات . فهو أننا حصلنا على قرارين جديدين من مجلس الأمن رقمهما ٥٠٨ و ٥٠٩ ومعنى ذلك أننا ما نزال فى مقدمة دول العالم من حيث الحصول على شرف حمل قرارات من المنظمة الدولية الممثلة للضمير العالمى . فسجلوا فى قائمة شرف الأنظمة : وعد بلفور والكتاب الأبيض وتقرير بيل وتقرير برنادوت وقرار التقسيم وقرار التعويض وقرار الاغاثة وقرار الادانة والقرار ٢٤٢ والقرار ٣٨٠ والقرارين ٥٠٨ و ٥٠٩ ، ولا تنسوا من فضلكم كامب ديفيد ، ومعاهدة ١٩٧٩ ، واللحم الذى أكلته الجوارح ، والدم الذى شربته الصحراء ، والأحلام التى اغتلتموها والأطفال الذين قتلتهم بياناتكم ولم تقتلهم دانات الاسرائيليين و ٢٠ قراراً لوقف اطلاق النار

صدرت على المسؤولية التاريخية لمن اصدروها . . . فمتى يحاسبهم التاريخ على هذه المسؤولية الملقاة ظلماً على عاتقه وأضف ـ أيضاً ـ إلى قائمة الشرف : وبرقيات الشحاذة التى انهارت على السيد ريجان !

. . . .

المسرحية يا سادة ـ باتت مملة ، نحن من زمن لا نرى سواكم ،

تقتحمون بيوتنا عبر شاشات التليفزيون وأمواج الأثير ، وتحتكرون حرو المطابع وألقاب التفخيم ومظاهر العظمة ، تبشرون بعدل ما شهدناه يوماً فتعالوا تحسسوا امعاءنا الفارغة ، وشفاهنا الظامئة ، وجربوا عذاب أن تعيشوا كما نعيش ، أنتم وعدتمونا بديمقراطية لم نعرف سوى سجونها ، وإليكم ظهورنا التى وشمتها سياطكم ، تكتب اسماءكم الموقرة على جلودنا ، تصوغ عليها هتافاتنا الكاذبة بأن يطيل الله أعماركم ، وشكرنا المزيف لما قدمتموه لنا . فقدموها للأمم المتحدة لعلها تنقذ ماء وجوهكم المراق على موائد الدنيا .

أنتم وعدتمونا بسياسة وطنية دليلها الواضح هذا المعدل الهائل من قرارات مجلس الأمن ، وطابوركم اللاهث وراء العم ريجان شجيع العصر الذى تحبونه من طرف واحد كالمراهقين ، تفخرون بصداقته وتباهون بالوقوف معه أمام الكاميرا ، وتحفظون خطاباته فى دفاتركم الرسمية ، وحين جد الجد ، ترك صديقه بيجين يقتل الأطفال ويبقر بطون الحوامل ، ولم يقرأ كلمة مما أرسلتموه .

أنتم اقتحمتم غرف نومنا وحوائط مكاتبنا ، واغتصبتم بصوركم ، التى تملأ كل شارع وحائط ، عيوننا ، أنتم ثقبتم آذاننا ببياناتكم وخطبكم ، بأصواتكم الهادرة ، وبأصوات المنافقين من « أهل المغنى »

يشكرون السماء إذ منحتنا إياكم . وفى نهاية الإرسال قتلنا الاسـرائيليون فأصدرتم بيان شجب وإدانة !

أنتم لم تعيدوا الوطن السليب ولم تصونوا الـوطن الذى لم يكن قـد سلب بعـد . وفى الحالين كنـا سبايـا لكم : إذا فرحتم أجبـرتمونـا على الفرح ، وإذا تنكدتم نكدتم علينا . نحن رقصنا فى موالدكم ، وحُشِرنـا فى مواكبكم وافترشنا صخر زنـازينكم وهتفنا لكم من وراء قلوبنـا ، وفى صلاة الجمعة دعونا الله عزَّ وجلَّ أن يولى علينا خيارنا ، ولا يولى شرارنا فاللهم استجب .

نحن - يـا سادتى - نشـاهد مسـرحيتكم المملة هـذه ، بـالقهـر وقلة الحيلة ، وكسر الجناح بقوانين أمن الدولة ، ومباحث أمن الدولة ، ونيابة أمن الـدولة وقضـاء أمن الدولـة ، ودولة أمن الـدولة ، بـالمكتب الثـانى والمكتب الخامس ، ومكاتب المعلومات والاستخبارات والاستعلامات ، برفاهية خدمات الأمن ، حتى أصبح لكل عشرة مواطنين عرب مخبر . . ولكل عشرة آلاف مواطن طبيب ! .

أنتم ما وحدتم الوطن إلاَّ فى ألفاظ بيـانات الإدانـة وفى قوانين أمن الدولة ، ولم تتفقوا إلاَّ على شىء واحد ، هو اسلاك بوابات الحدود التى عززتموها حتى تمنع « الوباء الفلسـطينى » من الدخـول إليكم ، وتحول بين رعاياكم وبين نجدته ، لأن فى الادانة كفاية . . وفيها افادة !

يولد الأطفال الفلسطينيون كل صبـاح يا جـولدا فـاسدلـوا الستار من فضلكم ، نريد أن ننفض من سامركم الممل ، نريد أن نصلى الجمعة فلا نكذب على الله كما تكذبون علينا ، ولا ندعوه أن يطيل أعماركم لتمرغوا كرامتنا فى الوحل ، أكثر مما فعلتم ، ولتصدروا مزيداً من بيانات الشجب

وترسلوا مزيداً من برقيات الشحاذة . افتحوا الطريق يا سادة نحن نريد أن نـذهب إلى الأقصى ، نشم عبير القـدس ، نصلى الجمعة هنـاك نـدعـو كلنا !

ـ اللهم وَلِّ علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا . .

اللهم استجب !!

(*) الأهالى ـ العدد ٣٧ فى ٢٣ يونيو ١٩٨٢

دموع من ملف سبتمبر

لا أذكر ما فعلته صباح ذلك اليوم بالتحديد . الأرجح أننى استيقظت كعادتى مبكراً ، فوجدت شريكى فى الزنزانة « محمد عبد السلام الزيات » يدخن سيجارة الصباح . فعلت مثله . تبادلنا كالمعتاد حديثاً ضاحكاً عن زميلنا الثالث « حمدين صباحى » الذى كان معتقلاً مثالياً : يسهر طول الليل ، وينام طول النهار ، وفى المساء يلقى الأشعار . .

ولا بد أن الزملاء استيقظوا تدريجياً ، وأثاروا ضجيج كل صباح : تبادلوا الصراخ باسمى كى اغادر زنزانتى فاتسلم الصحف من ادارة السجن ، وأوزعها عليهم .

فعلت ذلك بالتأكيد .

ساعتها رأيت جانب وجهه . كنت أتحدث ـ عبر قضبان باب الزنزانة ـ مع شريكة فيها محمد حسنين هيكل الذى تسلم الصحف بلهفة سائلاً عما إذا كان بها شىء هام .

حين رأيت جانب وجهه قلت :

ـ صباح الخير يا دكتور عبد العظيم . .

شتويا كان اليوم والشمس ابتسامة . . ربما رأيته بعد ذلك فى الطابور . أكان ذلك حين وقفت مع «د. محمود القاضى» أسمع تحليلاته السياسية العميقة لما قرأه فى صحف الصباح من أنباء وآراء ؟. ربما . انضم إلينا « د. محمد خلف الله » قلت معقباً :

ـ بس ده تحليل ما يخرجناش من السجن يا دكتور محمود !

ضحكنا . ففى أى زاوية من زوايا السجن كان حزن اليوم يختفى ؟.

بدأنا نبحث عن تحليل سياسى آخر للأوضاع ينتهى بخروجنا من السجن . تقدم « فؤاد سراج الدين » قادماً من ناحية باب العنبر . وقفنا جميعاً . أفردنا له مقعداً فى الشمس . تقدم تجاهنا بخطوات راسخة رغم وهن الصحة . كما ينبغى لفلاح عتيد من كفر الجرايدة . عابثناه باسمه الجديد : « لويس السادس عشر » ضحك . . روى حكاية .

نادانى النقيب « جلال سعيد » ضابط السجن ، سلمنى كوبونات الكانتين لأوزعها . وضعتها تحت أبطى . . توجهت إلى ملعب الكرة الطائرة . وقفت أتابع اللاعبين : « محمد فائق » و « حسين عبد الرزاق » و « كمال أبو عيطة » و « محمود زينهم » . قلت لنفسى ولهم :

ـ إن مصلحة السجون ومباحث أمن الدولة مسؤولتان عن تدهور مستوى الرياضة والشعر . ففى السجن يظن الجميع أنهم رياضيون ، ويكتب الجميع شعراً فى عيون حبيباتهم .

طردونى شر طردة . أظن أننى رأيته آنذاك وهو يمر خلفى . ولعلى سمعته يقول شيئاً عن حمام ساخن ، ومن المؤكد أننى فتحت مناقشة مع « د. عبد المحسن حمودة » . وصلت إلى طريق مسدود فأجلناها إلى فسحة الغد . .

ما أذكره جيداً أنني دخلت للعنبر بعد انتهاء الطابور وكان معي « د. جلال رجب » و « د. على النويجى » ، جلسنا في ظل السلم الذى يقود إلى الدور العلوى . . صعد « صبرى مبدى » أولاً وهو يقول شيئاً . أما هو فقد خرج حينئذٍ من الحمام وقد لف جسده بروب ، وصنع من فوطته عمامة .

فى المساحة بين انتهاء الطابور والجلسة النقاشية التى نعقدها بعد صلاة ظهر كل يوم . تجمعنا فى باحة صغيرة تقع بين زنزانة « محمد خليل » وزنزانة « كمال الابراشى » و « محمد عيد »

جاء « هيكل » فاحتل المساحة المشمسة وحين رأى « عبد العظيم أبو العطا » دعاه للجلوس فى الشمس . تناقشنا فى شىء لا أذكره . كنت مشغولاً بعد كوبونات الكانتين ، جاء « حلمى مراد » و « ابراهيم يونس » و « حامد زيدان » تسلم كل واحد نصيبه . وحين صعد « أحمد ناصر » أكدنا عليه بعدم استخدام أى مقعد غير مقعده ، لأن الله لا يكلف مقعداً فوق طاقته ، أظن أن « عبد العظيم أبو العطا » قام ساعتها ، سأله « هيكل » :

ـ رايح فين يا عبد العظيم ؟!

ـ حاستريح شوية !

كان شريكهما الثالث فى الزنزانة ١٧ ـ « عبد العظيم المغربى » ـ يمارس هواية الاستئثار بكل الصحف بعد انتهاء الطابور .

. . . .

لم يكن قد مضى عليه بيننا فى سجن الملحق سوى عشرين يوماً . أذكر أنه وصل ذات غروب . صاح النقيب « سامى سرحان » من الدور

السفلى معلناً أن « صابر بسيونى » قد عاد من مستشفى سجن الاستقبال ومعه ضيف جديد هو « عبد العظيم أبو العطا » .

رأيته فى الصباح وأنا اسلم الزنزانة ١٧ صحفها ، رحبت به وحييته ، وسألته عن أماناته وعما يريده من الكانتين كى أدبره له . بدا لى رقيقاً ومهذباً وقابلاً للتفاهم ، ولم يسألنى عن الطريقة التى ننظم بها معاشنا . قال :

ـ ما تنفذونه على أنفسكم ، أقبل به .

فى ضحى اليوم نفسه رأيته مرة أخرى فى العيادة والطبيب يفحصه ، بدا لى شاحباً وهزيلاً أكثر من المعتاد . . سمعته يشكو أمراضه ، لم أتابع التفاصيل ، كنا جميعاً مرضى . وكنت أعلم أن أحداً لن يوافق على نقله إلى مستشفى جامعى .

لعله كان مثلى حيياً بعض الشىء . . شعرت فى الأيام التالية أنه يبحث عن فرصة نتبادل فيها الحديث . ربما لكى يتعرف على جيل آخر غير جيله ، ومع أننى تذكرت الحملات الاعلامية التى كان يشنها على « اليسار » حين كان سكرتيراً عاماً لحزب مصر ، إلاّ أن ذلك لم يكن السبب ، فلو كنت ـ أو كان ـ أكثر اقتحاماً ، لعرفته قبل أن تضيع الفرصة إلى الأبد . .

في بعض الليالى كان يتحدث فى اذاعتنا المحلية ، وكان مذيعاً ناجحاً واضح الصوت ، محدد النبرات ، مرتب الأفكار ، يتحدث الفصحى بطلاقة ورشاقة . وكانت معظم أحاديثه عن الزراعة والرى ، وعن النيل والسد العالى . ويوماً آخر تخلقت له فى ذهنى صورة مهندس الرى المصرى الذى عاش عمره على ضفاف النهر وفوق جسوره . يعمل

فى الحر اللافح وفى المطر الغزير . ويغطى رأسه أحياناً بكاسكيت أو برنيطة ، ويتحدث مع الفلاحين وعنهم . .

حين نظمنا مسابقة تقوم على التتابع الشعرى ، يبدأها واحد ببيت شعر ، ويتخذ الآخر من قافيته حرف ابتداء لبيت آخر . أثبت أنه راوية ممتاز ، وأنك محصوله من محصول الشعر وفير ، ولولا « د. اسماعيل صبرى عبد الله » لما كان له منافس بيننا . .

لم تكن لدى فكرة عن حالته الصحية ، لكن وزنه كان يزداد هزالاً ، وكان مصاباً بقرحة فى المعدة تتطلب غذاء خاصاً ، لم يسمحوا له به ، ولما كان مستحيلاً أن يأكل طعام السجن . فقد عاش أسابيع على اللبن الزبادى فقط .

. . . .

. . . .

كنا يومها فى انتظاره ، فاليوم كان مخصصاً لمناقشة محاضرة ألقاها قبل أيام عن مشكلة الأرض الزراعية ، وكنت ما زلت أعد الكوبونات . وكان قد دخل زنزانته ليستريح شوية كما سمعته يقول لهيكل ، ولا أذكر أننى رأيت زميلينا الطبيبين «على نويجى» و«كمال الأبراشى» وهما يدخلان الزنزانة ١٧ ، فقد فوجئت بالأخير يخرج منها مذعوراً ويصرخ طالباً ال انبوبة الأكسجين .

تحركت على الفور ، الأنبوبة عهدتى . . وهى عذابى ورعبى وقلقى ، جاءوا بها يوماً فوضعوها خلف سرير « عبد السلام الزيات » . شرح الطبيب ـ لى ولحمدين ـ كيف نستخدمها قال مشيراً إلى « عبد السلام الزيات » :

ـ الحالة ثابتة ومطمئنة ولكن الاحتياط واجب ، فى الليل كنت أتقلب على فراشى قلقاً ، أرى شبح الأنبوبة الضخمة التى يصل طولها إلى متر ونصف وهو يلقى بظله على وجه « الزيات » النائم ، أدعو الله أن تمر كل ليلة على خير ، اتساءل : ألا يحتمل ألا استيقظ إذا ما احتاج الرجل إلى معونة ، يضنينى السؤال ، يظل فى رأسى حتى أنام مجبراً . .

انتقلت الأنبوبة الضخمة بسرعة شديدة من زنزانتنا إلى الزنزانة ١٧ ، جلست صامتاً ولاهثاً ، عرف الوافدون للمشاركة فى الندوة أن « أبا العطا » يمر بأزمة صحية، جلسوا قلقين صامتين ، دقائق مرت ، ربما ثوان ، خرج الطبيبان وهما ينشجان بالبكاء :

مات عبد العظيم أبو العطا !

. . . .

. . . .

لم يتحرك أحد أو شيء من مكانه لم تلتق نظرتان ، اختفت العصافير التى كانت تطير كل صباح أمام أبواب الزنازين ، نظرت إلينا القطة « مشمشة » بذهول ، لأننا انشغلنا جميعاً فى وقت واحد عنها ، سكن الهواء ، جمدت الظلال ، ظل كل شيء على ما كان عليه .

أقدام « فؤاد سراج الدين » و « عبد الفتاح حسن » و « فتحى رضوان » تجاهد الهم والحزن والشيخوخة لتصعد لأول مرة إلى الدور العلوى . اختفى « حلمى مراد » فى زنزانته يبكى . صعد « محمد عبد القدوس » ومعه مصحفة ، ألقى السلام ، داخل إلى الزنزانة ١٧، تصاعد صوته يتلو آيات من كتاب الله . كان الشيخ « مصطفى عاصى » و « عبد العظيم المغربى » يقومان بالواجب الذى ينبغى للأحياء أن يقوموا به تجاه

موتاهم ، وجد « أبو العطا » أسرة تودعه وتبكيه وتتلو معه وعنه الشهادتين ، تسبل عيونه ، وتغضب لما جرى له .

وحين جاء « ميلاد حنا » و « محمود القاضى » انفجر البكاء ، لم أكن أعرف أن ما يجمع المهندسين الثلاثة الكبار هو صداقة عمر ، وزمالة مهنة ودراسة ، عرفت ذلك من الدموع ، وعرفته حين أصبح الرجلان فى حالة نفسية دعت الأطباء للقلق عليهما ، حالوا بينهما وبين دخول الزنزانة ١٧ ، أجبروا « القاضى » على العودة لزنزانته ، رفض « ميلاد حنا » أن يغادر الدور العلوى ، أدخلوه زنزانته ، ولم يكف عن البكاء حتى أجبروه على تناول بعض المهدئات .

مر بى « د. على النويجى » . كان قلقاً ومجهداً ، وجدنى جالساً على مقعدى مشدوهاً كتمثال ، فى عنقه سماعة طبية وفى يده جهاز ضغط ، قال :

ـ بيننا سبعة على الأقل مصابون بجلطات مختلفة فى القلب ، أخشى الانفعالات الحادة .

وحين لاحظ جمودى سألنى :

ـ أنت بخير .

نظرت إلى وجهه الطيب بحيرة ، تذكرت أنه أحد هؤلاء السبعة ، فكرت أن أطلب منه أن يستريح ، لكنه كان قد حمل جهاز الضغط ، ومضى يحاصر أى آثار محتملة لكوارث جديدة !

أخطر « الشاويش محمود » الادارة ، مضى وقت طويل قبل أن يأتوا بكامل هيئتهم ، ضباط كبار ، وضباط صغار ، مخبرون وشاويشية ، صعدوا السلم بأقدامهم العسكرية الثقيلة ، كنا ما نزال جالسين حيث نحن ، وصوت المرتلين الثلاثة يتلو قول الله عزَّ وجل :

﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفارا ﴾ .

دخلوا الزنزانة ١٧ ، خرجوا ، قال كبيرهم :

ـ البقية فى حياتكم !

كان « عصمت سيف الدولة » أول من تكلم . لا أذكر ماذا قال . لم يتحدث إليهم ولكنه تحدث لنا ، من هؤلاء وماذا أتى بهم ؟! من أنتم يا سادة . معزون ؟! فأين القتلة إذن ؟!. كان يتحدث بغضب بالغ ودموعه تتساقط بغزارة . عاجز عن إيقاف غضبه ، وعن إيقاف دموعه . .

من أنتم يا سادة . أسابيع طويلة وأنتم تقومون بواجب سخيف وتنفذون قراراً أحمقاً . مات « عبد العظيم أبو العطا » ، فهل قضى موته على الفتنة الطائفية ؟!. وهل صان أمن الوطن والمواطن . هل استراح الملايين العشرة من المصريين الذين قالوا نعم فى الاستفتاء على قرارات سبتمبر وعلى قائمة الاعتقالات . هل تحققت إرادة الشعب لأن « أبو العطا » مات و « كمال السنانيرى » مات و « جابر بريقع » مات ؟!.

إذا كنتم معزين فمن يكون القاتل . . من أتى بأكرم ابناء الوطن إلى هذا المكان القمىء، ليتحكم فيهم أسفال وأصفار . ماذا صنعتم أنتم للوطن ؟. أى خير قدمتموه له .

أصبح « أبو العطا » ورقة فى ملف ما يهم إدارة السجن الآن ، هو أن تكتب شهادة وفاة رسمية . وتنقل الجثة من السجن ، لتغلق المصلحة الملف !

عند ذلك الحد قال « عصمت سيف الدولة » : لا . لم يستأذن أحداً منا ولم يعارضه أحد :

ـ لن تخرج جثة أبو العطا من هنا إلاّ إذا جاءت النيابة العامة . لن نتركم تفرون بجريمتكم دون تسجيل حتى لو كان ذلك للتاريخ . لن تخرج الجثة من هنا حتى لو سالت الدماء . اسحبوا مخبريكم وخذوا ضباطكم واجلسوا جميعاً فى مكاتبكم . لن ندخل زنازيننا حتى ولو على أسنة الرماح . لن نخرج من العيادة حتى لا تعبثوا بالملفات الطبية التى تثبت اهمالكم وعدم تنفيذكم للقانون . وتؤكد أنكم لم تكونوا أمناء على الذين أخرجتموهم من بيوتهم وجئتم بهم ـ دون تهمة أو جريمة ـ ليموتوا فى الزنازين الصلدة !

. . . .

حين تقدم الليل كنت ما أزال اجلس على مقعدي أمام الزنزانة . تركنا الأمر كله فى يد لجنة فوضناها للحديث باسمنا مع الإدارة . عصمت وهيكل واسماعيل صبرى ، باحة السجن الداخلية بلا حراس ، الليل يتقدم . الجميع يتجولون قلقين فى الفناء الضيق . تأملت فؤاد مرسى وفريد عبد الكريم وهما يسيران معاً صامتين . ناوشنى اشفاق حاد عليهما . . إلى متى يحتمل هذا النوع القوى الجسور من الرجال عذاب السجن وخطر السياسة وحمق الذين يحكمون .

ازدحم رأسى بشريط من صور الذين رأيتهم يموتون فى السجون . تذكرت السياط والعصى والشتائم والبذاءات . فكرت فى شهدى عطية ولويس اسحاق ومحمد عثمان وفريد حداد واسماعيل الفيومى . . قلت لنفسى : متى يأتى الزمن الذى يدخل القتلة فيه السجون . .

أجبرنى « على نويجى » و« إبراهيم يونس » على الذهاب إلى الفراش . فى الظلام جلست وحيداً ، امتلأت الغرفة بكلمات الذين ايدوا

اجـراءات سبتمبر . كـانـوا امـامى يـرقصـون ويـطبلون ويهتفـون . قلت لنفـسى : متى يأتى الزمن الذى يدخل القتلة فيه السجون . .

حين أطل الفجر من كوة الزنزانة سمعت أصواتاً علمت منهـا ، أنهم سينقلونـه. أصـر الـزمـلاء على أن يحملوا بـأنفسهم جسـده إلى بـاب السجن . كان الكل يقظاً . احتشدوا جميعاً خلف الجثة . وحين آن لها أن تغادر السجن ، هتف كمال أبو عيطة وحمدين صباحى :

ـ ابنك يا مصر . . عشانك يا مصر . . فداكى يا مصر !

تصاعدت أصوات الرجال مخشوشنة مخنوقة بالبكاء تردد الهتاف. رجال من كل الأجيال وكل الثورات وكل الأفكار . لحظتها فقط سألت دموعى ، بكيت كما لم أبك طول عمرى . حـاولت أن امنع نفسى من البكـاء فلم استطع . . وكان صوت محمد عبد القدوس يتلو آنذاك قرآن الفجر :

ـ **﴿ لا يغرنك تقلب الـذين كفروا بـالبلاد . . متـاع قليل ومـأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾** .

(*) الأهالى العدد ٤٨ فى ٨ سبتمبر ١٩٨٢ .

نوبة رجوع للحرس القديم

عندما سمعت النبأ فى بداية المساء ، عرفت أن ما ظللت ليال طويلة أخافه ، وارتعب من وقوعه ، قد حدث اخيراً . . ولكن بعد ست سنوات : مات محمد عبد السلام الزيات . . ولم أدهش حين علمت أنه مات وهو يشهد أحد اجتماعات اللجنة المصرية للسلام . كنت أعرف منذ البداية ، أن نوعه من الرجال يموتون ـ عادة ـ واقفين .

هربت إلى الشرفة خجلاناً من غلالة دمع انسدلت فوق عيونى ، اتأمل ـ من خلال استارها ـ افقاً ينزف دماً ، وأتابع سرباً من العصافير يرحل غرباً . سألتها أن تقبل عنى جبينه المسجى . أصبحت أخبار موت الأصدقاء ـ يا عصفورتى ـ قهوتنا الصباحية . . غدت احضانهم سراباً . . والصقيع يزحف ، وأين أجد ـ يا عصفورتى ـ فى زمن اكل الجفاف خضرته ، والتهم الجراد كل مسراته ، فيضان الدمع الذى يليق بحرقة القلب على رحيل رجال مثل « أمل دنقل » و « شادى عبد السلام » و« نبيل السلمى » و « عبد السلام الزيات » ؟!!

. . أما الـوجيعـة المستكنـة فى الضلوع ، فهى أنهم يـرحلون بـلا بدائل . تسقط الثمار الناضجة ـ يا عصفـورتى ـ والأرض خراب لا تنبت سوى الحلفا والأشواك والصبار . . فمـاذا لا يفكر مستثمـر ابن كلب من مستثمرى هذه الأيام السوداء ، فى انشاء بنك دولى للدموع ، نقترض منه مـا يكفى لكى يفيض النهـر . . فتـــطفـوا اشـــلاء « اوزوريس » وينهض « حـــوريس » ـ من بين الحلفـا والأشــواك والصبـار ـ فتيـا عفيـا كقبلة العذراء . . فيهزم « ست » الشرير . . ساعتها يبرأ أيوب العليل ، تزغـرد « ناعسة » من قلب قلبى . . ينسدل شعرها شلال من الفرح على وجهى المبلل بالدموع ، فأسير فى جنازة عبد العزيز الشوربجى وقبارى عبد الله ومحمـود القاضى . . وعبـد الفتاح حسن . . أحـدوا المشيعين منشداً : البحر زاد عوف الله . . غطى البلاد . . عوف الله ! . . .

فى ركن الشرفة ، وجدته ينام على سريـره ـ في صدر الـزنزانـة ٢٣ بـالدور الثـانى من سجن ملحق مزرعـة طره ـ هـادئاً ووديعـاً وجليـلاً . . والتاريخ يوم ما من شهر القهر سبتمبر ١٩٨١ . تتسلل شقشقة العصـافير مع أول أشعة الشمس . تحمل عبير الحياة الطازج خارج الأسوار . يفتح عينيه . يعتدل فى جلسته . . يمد أسرعنا فى العثور على علبة سجائره يده للآخر بلفافة الصباح ، ويشعلها له ، مع أول أنفاسها ، يقول أو أقول ، أو نقول معاً :

ـ هوا ابن الـ« . . . » ده حابسنا ليه ؟!

يبتسم . اضحـك بصوت عـال . يصيح محمـد خليل من الـزنزانـة المجاورة : بلاش دوشة يا ٢٣ عاوزين ننام . كان السؤال ـ فى الأصل ـ سؤاله . يطرحه على كل صباح بمجرد أن نفتح عيوننـا فى الوقت نفسـه تقريباً . وابن الـ« . . . . » الذى كان يحبسنا هو السـادات طبعاً . . أمـا

علامات الاستفهام والتعجب . . التى كنا نقتلها بحثاً وتحليلاً كل صباح ، فسببها هو الحالة العبثية التى كنا فيها فقد كان المبرر الرسمى لاعتقالنا ، هو أننا من المحرضين على إشعال الفتنة الطائفية !

في اليوم الأول لانتقالنا من « سجن الاستقبال » إلى سجن الملحق ، وقفت فى زنزانتى اتابع طابوراً من رجال الحرس القديم يتوافدون إلى الزنازين المجاورة رجال تجاوزوا الستين أو اقتربوا منها : تقلبت عليهم العهود والأزمان ، فوهن العظم منهم ، واشتعل الرأس شيباً ، وهاجمتهم الأمراض والعلل ، فطالت حتى القلب . . لكنها لم تطل الروح . . واستغرقنى مشهد المرحوم عبد العزيز الشوربجى ، نقيب المحامين الأسبق ـ وكانوا قد اعتقلوه من فراش المرض ـ وهو يصعد السلم بأعوامه السبعين ، بخطوات بطيئة وواهنة ، وحوله عبد العزيز محمد وأحمد ناصر ومحمد خليل يحاولون مساعدته فيرفض بإباء . . ويهشهم بعصاه التى كان يستند إليها . . لكنهم ـ فى بنوة دافقة كقلب الأم ـ يظلون خلفه ، يتابعونه مثلي بإشفاق . . ولحظتها أحسست أننى مسجون حقاً . . ومقهور فعلاً . . وعضضت على شفتى خجلاً من دموعى التى بللت قضبان الزنزانة !

وحين استقرت الأوضاع ، وجدت نفسى فى زنزانة واحدة ـ هى رقم ١٤ ـ مع محمد عبد السلام الزيات وفؤاد سراج الدين ، وقد قاوما بشلة ـ وبنبل حقيقى ـ تطوعى بأن أقوم عنهما ببعض الأعمال البسيطة فى زنزانتنا المشتركة بحكم سنى ، لكنهما اضطرا للرضوخ ، ولأن الزنزانة كانت الوحيدة التى لا اضاءة بها ، فقد أمضينا الليالى الأولى نستمع إلى ذكريات فؤاد سراج الدين ، بينما كان بقية الزملاء يقضونها فى سمر ،

وحين طال اختفاؤنا نادانا حسين عبد الرازق سائلاً : انتوا طلعتوا افراج ولا أيه ؟ قلت : لا . . دا مشوار صغير لحد ثورة ١٩١٩ وراجعين . وكان « الزيات » قليل الكلام . وبدا لى أنه ـ فى أوقات كثيرة ـ يرحل داخل نفسه ، وحين سألته ونحن نشمس البطاطين فى فسحة الضحى ، عرفت أنه قلق على شقيقته الدكتورة لطيفة الزيات ، التى كانت فى القاهرة حين قبضوا عليه من رأس البر . .

وفيما بعد ، أدركت أن ما كان يقلق « الزيات » كان كثيراً ، وفوق الطاقة الانسانية . واذهلنى أنه تحمله بكل تلك الجسارة . كان يبدى فى الأيام الأولى ـ سعادته لأنه يقيم معنا فى السجن نفسه بشكل بدا لى أن فيه بعض المبالغة، أو المجاملة، أما الحقيقة ـ التى عرفتها بعد ذلك ـ فهى أنه كان يدرك أنه واحد من الرؤوس الثلاثة الكبيرة ، التى كانت هدفاً رئيسياً لحملة سبتمبر . . وكان الآخران هما « فؤاد سراج الدين » و « محمد حسنين هيكل » ولم يكن ـ بحكم خبرته بشخصية السادات ، وعمله طويلاً معه ـ يستبعد عليه أى شىء . وكان بعض المقربين من السادات قد نقلوا إليه قسمه المغلظ بأن يغلق بيت الزيات إلى الأبد لذلك كان يرى أن فى اقامته معنا نوعاً من الحماية ، ويخشى أن ينقل وحده إلى سجن آخر يتاح فيه للسادات أن يقضى عليه بشكل أو بآخر ، خاصة وأن حالته الصحية كانت بالغة الحساسية بسبب جلطة خطيرة فى القلب ، كانت قد أصابته منذ سنوات .

ويوماً بعد آخر ، كانت آلامى النفسية تزيد ، وشوقى لأبى يملأ القلب . وخوفى أن يموت فتحول الأسوار بينى وبين أن أقبل جبينه ، وأُسْبِل عيونه ، واتلو عنه الشهادتين ، واحضر غسله ، واتلقى العزاء أمام

قبره ، يملؤنى تعاسة . . كنت أصرفها عادة فى تأمل مناضلى الحرس القديم ، وهم يتجولون فى فسحة الضحى أمام زنزانتى : فتحى رضوان وفؤاد مرسى واسماعيل صبرى عبد الله وعصمت سيف الدولة وإبراهيم طلعت وجلال رجب اطال الله أعمارهم جميعاً ، والمرحومين عبد العزيز الشوربجى ومحمود القاضى وعبد الفتاح حسن . . وليس فيهم واحد يخلو من الأمراض . . ومع ذلك فهم يتحملون السجن بشجاعة ، ويصمدون أمام ظروفه القاسية ، ويضحكون فى وقار ، ويتحدثون عن الوطن فى حماس ، فأقول : لا نامت أعين الجبناء !

وذات ضحى اقترب منى المرحوم عبد الفتاح حسن ، ونحن ننشر بطاطيننا فى الشمس ، وهمس فى أذنى دون أن يوجه إلى الحديث مباشرة : خلى بالك من فؤاد باشا . وهزنى حدب الرجل العجوز على صديق عمره ، وأشرت إلى عينى بسبابتى دون أن أتكلم ، ثم مسحت بهما دموعى وأنا ابتعد عنه بسرعة .

وكان يوم ١٧ سبتمبر ١٩٨١ واحداً من أيام الحزن العظيم فى عمرى . كانت زنزانتنا قد استكملت استعداداتها لإصدار العدد الأول ـ والأخير ـ من المجلة الإذاعية « الزنزانة » فى مساء اليوم نفسه . وكنا قد اذعنا اعلانات مثيرة عنها ، فرئيس مجلس الإدارة والمحرر الرياضى هو فؤاد سراج الدين ، ورئيس التحرير هو محمد عبد السلام الزيات ، ومدير الإعلانات والتحرير ومذيع الربط هو العبد لله . وفى العدد خبطة صحفية عالمية ، فقد حصلت ـ بمساعدة فؤاد سراج الدين ـ على موافقة من محمد حسنين هيكل لاجراء أول حديث معه على الهواء . .

وقبل صدور العدد بست ساعات توالت انباء السوء تترى : جاء طبيب

السجن والمأمور ليطالبا الزيات بأن يجمع حاجياته لينتقل فوراً إلى المستشفى ، وإلّا فالسجن غير مسؤول عن حياته ، لأن حالته الصحية حساسة للغاية . ورفض الزيات بعناد . وحين سألته محاولاً أن أخفى جزعى عليه عن السبب ، أكد لى أنه يعرف حالته ، ويشعر أنها مستقرة ، والمح لى ـ لأول مرة ـ ومن طرف خفى بمخاوفه من أن يستدرجونه إلى مكان بعيد يتخلصون فيه منه بعيداً عن رقابتنا ، نحن أصدقاؤه وأبناؤه . . وتشاورت مع فؤاد سراج الدين . . ومع أننا أخذنا شكوك الزيات مأخذ الجد ، فقد كنا ـ أيضاً ـ نخشى أن يكون كلام الطبيب صحيحاً ، وأن نتمسك ببقاء الزيات معنا ، فيصيبه مكروه . . وتوصلنا إلى حل وسط ، هو أن يصر ـ ونصر معه ـ على نقله إلى أحد المستشفيات الجامعية ، وليس إلى أحد مستشفيات السجون ، لكى يكون فى كفالة اطباء ذوى ضمير مرهف !

« وبعد مجموعة من الاتصالات ، أعلنت إدارة السجن موافقتها على طلبنا ، وغادرنا « الزيات » قبل الغروب بقليل ، واحتضنته مودعاً ومشجعاً ، وهو يهمس فى أذنى تحاول تعرف أخبار عن الدكتورة لطيفة . . وجاء موعد صدور العدد الأول من « الزنزانة » وحزن متفجر غاضب يشمل كل خلية فى القلب والروح والجسد ، وكان على أن أحل محل الزيات فى القاء افتتاحية العدد . فنسيت كل ما اتفقنا عليه من أن تكون المجلة خفيفة ، وأن تتوقى الحديث فى السياسة ، إذ كان النبوى اسماعيل قد وضع أجهزة تصنت تنقل إليه ، ما نقول لينقله إلى السادات يوماً بيوم . وخصصت الافتتاحية للحديث عن الزيات ، فحييت ضميره النقى الذى رفض أن يساوم على ما يعتقد أنه الصواب ، وأرسلت إليه بتحياتنا وتضامننا . وقلت أن هذا السجن يضم ثلاث ثورات هى ثورة

١٩١٩ ، وما تفرع عنها ، وثورة ١٩٥٢ وما تولد منها ، والثورة القادمة التى ما زالت فى علم الغيب . . ونبهنى فؤاد سراج الدين إلى أننى قد « سخنت » أزيد من اللازم . . وتوالت مواد العدد . وفى الصفحة قبل الأخيرة ، طلبت من كل واحد من المعتقلين أن يوجه رسالة إلى أى إنسان يختاره فى الخارج . . فإذا بالرسائل تتوجه إلى الزوجات والأولاد والآباء والأمهات ، وإذ بجو الحزن يخيم على السجن ، وإذا به يقودنى مرة أخرى إلى الغضب فأخصص للصفحة الأخيرة بيتين من الشعر ، الأول : نشكو إلى الله أنا نزلنا بمنازل تحكم فى أسادهن كلاب والثانى : ودعا الله عليك فى محرابه الشيخ والقسيس والحاخام . وقال صبرى مبدى : بس الحاخام ما بيدعيش عليه . . قلت : معلش . القافية تحكم . وفى الصباح كنت أنقل إلى التأديب بتهمة القاء قصائد شعرية تعرض بإدارة السجن !

حين عدت . أنا وحمدين صباحى ـ من التأديب بعد عشرة أيام سكنا معاً ، وما لبث الزيات أن عاد من المستشفى فأقام معنا فى الزنزانة ٢٣ وبعد وصوله بقليل ، فوجئت بأنبوبة أكسجين تفوقنى طولاً تدخل الزنزانة لتستقر بجوار سريره ، وجاء الطبيب فناولنى حقنتين زجاجيتين ، أحدهما ـ فيما أذكر ـ أمينو فيللين ، وطلب منى أن أعى جيداً تعليماته ، إذ كان على إذا أدركت الزيات أزمة قلبية ، أثناء اغلاق الزنزانة فى الليل أن أسرع بتحطيم رقبة الحقنة ، واسقيه محتواها ، وأن أفتح الأنبوبة ، وأمد خرطومها نحو انفه ليستنشق الأوكسجين .

وأصابتنى حالة غباء ، فاستعدت الشرح أكثر من مرة . . ومع ذلك فقط ظللت ليال طويلة خائفاً ـ إلى درجة الرعب ـ أن تدركه الأزمة ،

فارتبك وأسىء التصرف ، فيحدث شىء أظل أبكيه طوال العمر . وعلى امتداد الليالى ، كنت أظل متيقظاً بعد نومه عدة ساعات ، أتأمل وجهه المستنيم للراحة ، وأتابع انتظام تنفسه ، حتى يخطفنى النوم . .

وفى كل صباح ، كنا نفتح عيوننا مبكراً على شقشقة العصافير ، فأشعر براحة عميقة لأن الذى أخشاه لم يحدث ، وكان أول سؤال يبادرنى به هو :

ـ هو ابن الـ« . . . . » ده حابسنا ليه !

ثم نضحك من زمن العجائب الذى عشنا حتى رأيناه . وأسأله بفضول عاشق للتاريخ عن أشياء . . وأشياء . . فيروى تفاصيل كثيرة ، أظل التهمها حتى يستيقظ بقية الزملاء . . وتبدأ دورة السجن العادية . .

وقد أدهشتنى صلابته ، إذ لم تكن التهمة التى سعى السادات لتلفيقها له ، ووضع من أجل ذلك ، أجهزة تصنت لمدة عامين كاملين فى منزله ، مما يمكن لرجل فى مثل تاريخه ومقامه ، أن يحتمل مجرد توجيهها له .

وكنت أشعر فى كثير من الأحيان ، بتعاطف قوى معه : هذا رجل عجوز ومريض ووحيد ، يدفع ثمناً باهظاً لأنه دافع عن الصواب . وكان فى استطاعته أن يتواطأ ويصمت فيشارك فى المغانم . هو الذى قال سيد مرعى فى عام ١٩٧٠ ، معترضاً على ترشيح السادات لرئاسة الجمهورية :

ـ عايزين تجيبوا السادات . ده شبخشيخة فى أيد الزيات .

لكنه ـ بعد شهور قليلة ـ يختلف مع السادات ، ويقاوم اتجاهاته التى كان بحكم قربه منه قد اكتشفها ، ثم يركل مقعد نائب رئيس الوزراء

ببساطة ، ولا يجلس فى الظل ، وإنما يظهر فى الاجتماعات العامة ، ويؤلف كتاباً عن دستور ١٩٧١ الذى انقلب عليه السادات ، ويدعو لتشكيل ائتلاف المصريين لانقاذ الوطن من الأخطار التى تتهدده ، فتتكأكأ عليه قوى مجنونة لكى تسلبه حياته ، وتشوه عطاءه للوطن . . لكنه ـ رغم انبوبة الأكسجين التى ترعبنى ـ يبدو قوياً وصلباً . . ومستعداً للفداء . .

وأحببته بلا تحفظ ، حين وجدته ـ رغم كل ما فعله به السادات ـ يحرص على الا تتجاوز الخصومة السياسية اطارها ذاك ، ويرفض بترفع نبيل أن يخوض فى سيرة خصمه الشخصية ، أو أن يهدر خصوصياته ، أو يمس أسرته ، أو يذيع ما أؤتمن عليه من أسراره الشخصية ، حين كانا أصدقاء . . وهى فضيلة نادرة فى الصراع السياسى على الطريقة العربية عموماً . . والمصرية خصوصاً !

وذات مسامرة من مسامراتنا الصباحية ، أنبأنى أنه سيقلب التحقيق معه أمام المدعى الاشتراكى ، إلى عريضة اتهام ضد السادات ، وسيذيع كل ما لديه من حقائق ، ليعرف الناس ـ كما قال لى ـ من فينا الخائن . . ومن فينا الجاسوس . ومع أننى تحمست ـ سياسياً ـ للفكرة ، إلاَّ أن نظرة إلى أنبوبة الأكسجين بجوار سريره ، جعلت قلبى الذى يتحدث ، فظللت أحاول اثناءه عنها ، وأكرر المحاولة . . وأنا فى ذهول من الدروس التى يعطيها لمثلى ، ولمن بعدى ، هؤلاء الحفنة النادرة من حراس الوطن القدماء . . فهل استطيع أن أكون فى صلابته ، حين أصل إلى مثل عمره ، أو أكون فى مثل ظروفه .

وفى صباح ٧ أكتوبر ١٩٨١ ، تقدم قائد المعتقل موكباً يضم كل الضباط . . ووقف أمام كل زنزانة من الزنازين ، فهمس بشىء لمن

يقيمون بها ، اختفوا على أثر سماعه . وحين مر على زنزانتنا تخطاها ، إذ كان من عادة الزيات إلا يحفل بزيارة القائد ، ولا يغادر سريره ، بل يتعمد أن يضع ساقاً فوق أخرى وهو في رقدته كلما رآه مقبلاً . . وكنت و « حمدين » ، معدودين من « فرع الشقاوة » الذى يتخطى لوائح السجن . . ولكن مجمل الشواهد جعلتنا نستنتج ما جرى ، وبمجرد أن فتحت الزنازين ، وخرج « عادل عيد » من الزنزانة المقابلة هاتفاً :

- تحيا مصر . . تحيا مصر . .

حتى رددنا الهتاف نحن الثلاثة وراءه : مات السادات وعاش الوطن . .

وقرر « الزيات » ألا يقول شيئاً !

. . حدث الآن يا أيها البدر الذى يتوسط كبد السماء ، ما ظللت ليال طويلة أخافه وارتعب من وقوعه ، مات محمد عبد السلام الزيات . فتعالى نبكى فى جنازته . . ننفخ نوبة رجوع للحرس القديم . نشتله فى رحم الوطن الذى منه جاء . وله عاش . نزرع رفاته فى الأرض . تنبت عظامه أشجاراً تنشر الخضرة فيتفتح نوار الحقول . . يفيض النهر . . تطفو أشلاء « أوزيريس » ، ينهض حوريس من بين الحلفا والصبار الأشواك ، فتيا عفيا . . ننشد في جنازته :

يا صَبَّ مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان .
مصر الاسيفة ريفها وصعيدها قبر أبرّ على عظامك حان .
يا طاهر الغدوات والروحات والأسرار والاعلان . .
أقسمت أنك فى التراب طهارة ملك يهاب سؤاله الملكان !
ونجفف الدموع !

(*) الأهالى - العدد ٣٠٢ - فى ٢٢ يوليو ١٩٨٧ .

والجروح قصاص

حين ولد خالد الاسلامبولى فى ١٤ نوفبمر ١٩٥٧ ـ بمدينة ملوى بصعيد مصر ـ كان أنور السادات قد أشرف على عامه الأربعين : وكيلاً لمجلس الأمة ، ومديراً عاماً للدار الصحفية التى أنشأتها الثورة ، وسكرتيراً عاماً للمؤتمر « الإسلامى » . .

سنوات طويلة مرت ، لم تمح من ذاكرته شغب الشباب ـ ولم تكن شمسه قد غربت بعد . وكان قد تسرب إلى الكلية الحربية ضمن جيل « أبناء الأفندية » الذى تسلل اليها عقب توقيع معاهدة ١٩٣٦ . على مشارف الحرب العالمية الثانية ، ومع صعود النازية والفاشية ، قدر الانجليز الذين كانوا يحتلون مصر أيامها ، أن مصلحتهم تقضى أن يدعموا الجيش المصرى ـ الذى حطمت الخيانة كبرياءه النبيل فى هزيمة التل الكبير المريرة ـ لعله يفيد إذا ما اضطروا لاشتباك وشيك مع النازية الصاعدة ، ولو بحراسة الطرق والكبارى !

وهكذا تقدم الابن الأكبر لمحمد أفندى السادات ـ الكاتب بالادارة

ضـباط أرستقراطيون ذوى أصول تركية وجركسية وفيهم انجليز ـ بكشف الـطبية بالجيـش ـ لكشف الهيئـة ، فلم يطالبـه أحد من أعضاء اللجنة ـ العائلة . لم تكن هناك عائلة : مجرد « كارت » توصية ، داخ الأب الفقير كى يحصل عليه من ضـابط انجليزى ممن خـدم تحت رئاستهم ، أتـاح للابن أن يصبح ضابطاً . بطريقة مشابهة أصبح جمال : ابن عبد الناصـر أفندى حسين ـ وكيل مكتب بريد الخطاطبة ـ طالباً بالكلية الحربية .

لم يكن أحد ممن أوصوا بهم يتخيـل أن يومـاً سيجىء ، ينقض فيه أولاد الأفندية على من منحوهم « كروت التوصية » فينهار عالم ويولد عالم جديد . ذلـك أيضاً لم يتخيله أحـد من سكان شـارع الطوخى بملوى ، الذين احتفلوا ذات يوم من نوفمبر ١٩٥٧ بسبوع خالد الابن الرابع لأحمد أفندى شوقى الموظف بشركة السكر . .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير . إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل . وتخـرج الميت من الحى ، وتخرج الحى من الميت ﴾ .

صدق الله العظيم

وحين كان الزمن ثـلاثينات القـرن تكون وعى السـادات السياسى . سنوات الأزمة الاقتصـادية الـطاحنة . تـدهورت أسعـار القطن ومقـامات الناس . انتشرت البيوع الجبريـة وهراوات بـوليس الديكتـاتور اسمـاعيل صـدقى . أنباء التفليسـات هى مانشتـات الصحف غير المنشـورة ، أمـا قرارات اغلاق الصحف فكانت تذاع حين لا يجدها الناس مع البـاعة . خفتت أحلام ثورة ١٩١٩ المتوهجة . انتهت المطالبة بالاستقلال التام ولو

بالموت الزؤام ، ليموت المصريون برصاص المصريين فى مظاهرات تطالب بالدستور . ويوم ثار عمال العنابر حاصرهم الجيش واثخنهم جراحاً .

كان العقد عنفاً هائجاً متوحشاً ، وشعوب تنتفض لتكسر دائرة العنف الجهنمية . في ليبيا كان السفاح « جرازياتى » يوثق الثوار المسلمين بالحبال ، يلقى بهم من الطائرات . يضحك قائلاً :

خللى محمد ينجيكم . .

لو كان محمد افندى السادات قليل الاهتمام بشؤون وطنه أو شؤون الدنيا حوله ، ما اختار لأبنائه أسماء أبطال الاتحاد والترقى : محررو تركيا الفتاة ، وبناة ما كان مجدها الحديث : أنور وطلعت وعصمت . وحين سئل أنور السادات ـ عام ١٩٥٣ ـ عن الكتاب الذى أثر فى حياته ، اختار كتاب أرمسترونج عن مصطفى كمال أتاتورك وقال : منذ قرأته لم أستطع أن أنام . وتغيرت حياتى تماماً . لكن أسمه ـ بعكس اسم جمال عبد الناصر ـ لم يظهر على خريطة تمرد الثلاثينات . ولعله كان مشغولاً آنذاك برغبته أن يكون ممثلاً فى فرقة يوسف وهبى . .

فى منتصف الثلاثينات تقدم رجلان ليقصا شريط الدم . كان ـ أولهما عبد الحكم الجراحى ، مصرياً وسيماً فى عمر الزهور ، يدرس الآداب ويقرض الشعر . قال : كيف لا يكون لطلبة الجامعة حصانة أدبية تمنع اعتداء الجند عليهم ما داموا بمعزل عن الجريمة ؟ نهره الضابط الانجليزى فلم يذعن ، أضاف : أتود أن تضربنى ؟ . وهل هذا من الشجاعة ؟ . هاك صدرى اطلق ليز الرصاص . مزق الغشاء البريتونى . من قال أن المستعمرين شجعان ؟ مات عبد الحكم المثالى البرىء كتب

بذمة رسالة للمستر بلدوين رئيس وزراء انجلترا : روح الشر . فى جنازته بكى الشباب وهتفوا : رفعت العلم . . يا عبد الحكم !

كان الآخر شيخاً لأحد مساجد فلسطين . لم يكن أحد يعرف أن تحت عمامته عقل فدائى . وأن فى جيب قفطانه مسدسات ، وأنه قد وصل إلى قناعة بأنه لا فائدة من ايقاظ ضمير المستعمرين . وأن الاستعمار عنف لا يرفع يده إلّا بعنف مثله . وحين قتل عز الدين القسام ـ فى أحراش يافا ـ كان العربى الجديد قد تعمد بالدم : آن للذين استذلونا واستباحوا أعراضنا ، وقسموا أوطاننا وصنعوا منا هراوات نضرب بها أنفسنا ، آن أن يدفعوا الثمن .

بدأت رحلة الخروج الكبيرة . انسحب أبناء الأفندية من مظلة الوفد الكبيرة الفضفاضة . اختلف ورثة ثورة ١٩١٩ . من الآن فصاعداً ، وبالذات فى الأربعينات ، سنسمع عن مصر الفتاة ، وعن الأخوان المسلمين ، وعن الشيوعيين . آذان الجيل تتابع خطى النازية الزاحفة لسحق الاستعمار القديم ، تحلم بوطن ترفرف عليه أعلام المجد المنكسة . القمصان الخضراء والقمصان الزرقاء وملابس جوالة الأخوان الصفراء . فى سنة من سنوات آخر العقد ، دخل أنور السادات الكلية الحربية بكارت توصية من ضابط انجليزى ، وكف عن التفكير فى أن يكون ممثلاً فى فرقة يوسف وهبى . وفيما بعد قال إن ميتة الجراحى كبدته الماً لا يطاق ، وكانت السبب فى تفكيره فى دخول الكلية الحربية ، حتى لا يواجه المصريون بنادق الانجليز بمجرد لحمهم الحى .

كانت الأربعينات هى شباب السادات المخطوف المسلوب . قضاها مفصولاً ثم معتقلاً فهارباً فمشرداً وجائعاً وهائماً على وجهه ، وهى التى

صنعت منه ـ فيما بعد ـ تلك الشخصية النادرة التى ستحير المؤرخين والمحللين . حوادثها ذائعة معروفة . رواها بنفسه صوتاً وصورة . كتبوها له ومثلوها . مسرحوها . لكن أحداً من المهرجين لم يستخبر دلالتها على الرجل ، وفيها سره المطوى . من عوامة الراقصة حكمت فهمى بدأ. ذهب يصلح جهاز اللاسلكى للجاسوسين الألمانيين ابلر وساندى أبلغت عنهما إحدى فتيات الوكالة اليهودية فى مصر . إعترفا عليه . حاكموه . نزعوا رتبته العسكرية . اعتقلوه . فى رقبته كوم لحم : زوجة وثلاث بنات غالبت احداهن الجوع والمرض فغلباها . حين هرب من المعتقل عمل سائقاً وتباعاً وكاتباً لمقاول . وكان يردد :

ـ آه من قلة الزاد وطول السفر .

سادات الأربعينات هو شباب مصر الذى لم يقبل عليها ذلاً ، ولم يرض لها امتهاناً ، فباعها نفسه دون أن يسألها ثمناً . وليس مهما أن اجتهاده كان صحيحاً . المهم أنه لم يقعد فى بيته ووطنه مختل ومنتهك . لم يقل : وانا مالى . باع البدلة العسكرية وكانت تساوى كثيراً فى تلك الأيام السوداء التى اختفى فيها الخبز فخرجت المظاهرات تهتف إلى الامام يا روميل . أما الويسكى فكان يملأ شوارع القاهرة ، وتتصدر اعلاناته صفحات الصحف .

جنود من كل لون وجنس وملة ودين : أفريكان وسنغال وهنود وباكستانيين وأفغان ، انجليز وأمريكان وفرنساويين . عالم يلعب بالرصاص والقنابل وقناديل المغنسيوم كباريهات وعلب ليل وأغنيات تجمع بين الكلام المسموح به وايقاعات غرف النوم . قال الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر محمد مصطفى المراغى : هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل فاعلنوا القاهرة مدينة مفتوحة . أفكار وآراء

وشعـارات : الله أكبر ولـك الحمد . الله أكبـر والمجد لمصـر . القـرآن دستـورنا والـرسول زعيمنـا والموت فى سبيـل الله أشهى أمانينـا . الخبز والحرية . مصر فوق الجميع . مصر والسودان لنا وانجلترا إن أمكنا .

حين أوشكت الحـرب على الانتهاء ، كان الجيل القديم ما زال يكرر كلماته : لا بد من اعادة فتح باب المفاوضات فلتنفذ انجلترا العهود التى بذلتها خلال الحرب ، ولتعدل معاهدة ١٩٣٦. جاء أوان الجلاء . لا بد من معاهدة جديدة تحفظ لمصر علاقـة « شريفـة » مع حلفـائها فى « العـالم الحر » . قدمت انجلتـرا على لسان قـادتها ٧٤ وعـداً بالجـلاء عن مصر والسودان منذ الاحتلال عام ١٨٨٢ وينبغى أن تنفذ واحداً منها .

بين قادة الجيل القديم تميز أمين عثمان بالدعوة لشىء مختلف . انشأ رابطة النهضة لترعى الصداقة بين مصر وانجلترا . تحلق حولـه شباب من الجيل الجديد يسمعه وهو يقول أن العـلاقة بين مصـر وانجلترا كـالزواج الكـاثوليكى لا انفـصـام لها مهمـا كان الـزوج شرسـاً ردىء الأخـلاق ، خائناً . ويضيف :

ـ انجلتـرا غلبت المانيـا فى الحرب . . فيـه ناس مجـانين عـاوزين يحاربوها . . أنا عاوز أعمل منكم ليدرز (يعنى قادة) !

لم يستطع أمين عثمان أن ينفذ إلى قلوب الشبان المجـانين ، الذين كـانوا ـ ومنـذ بدأت الحـرب ـ قد ولغـوا فى دم جنـود الاحتـلال ـ حملوا السلاح بالفعـل . رأوا فيه فتـوة جيل المسـاومات والمفـاوضات الحلول الوسط منظر الهزيمة ومفلسف التبعية . قالوا :

ـ دابيفلسف الهزيمة . . على الأقل الزعمـاء التانيين وشهم الـظاهر للشعب بيدعى عداء الاستعمار . . لـكـن دا بيقول لازم نفضل متجوزين الإحتلال !

وتتعقد الفكرة ، ويعطيها أنور السادات ـ أكبرهم سناً وأوفرهم تجربة ـ دفعة قوية : لا بد أن نبيد جيل ثورة ١٩١٩ الجيل الذى أضاع الثورة فى الخطابات المتبادلة مع لندن الباحث عن وزارة انجليزية معقولة يفاوضها ، لكى يحصل على الفتات . شاخ الاستعمار رغم أى انتصار والضرب فيه الآن مؤثر . انجلترا لا تحكم مصر بجيش الاحتلال ولكن بالخونة من ابنائها . لولا خيانة محمد سلطان باشا وعلى خنفس والخديوى توفيق ما دخل الانجليز مصر . لن تمر معاهدة جديدة . ولن نسمح لجيل التفريط فى كرامة الوطن أن يوقع على مزيد من الصكوك . .

إلى جبل المقطم قادهم السادات ، ثلة من طلاب المدارس الثانوية وطلاب جامعة فؤاد الأول ـ باعتبار ما كان ـ لم يكن أكثرهم قد خلع البنطلون القصير إلاَّ منذ سنوات قليلة ، لكنهم ـ مع ذلك ـ قفزوا إلى الرجولة قبل الأوان . لم يعيشوا طفولتهم . لم يعش أنور السادات أيضاً شبابه . وجدوا أنفسهم وكل ما يشغلهم هو أن يضغطوا على تتك المسدس ليقتلوا جنود الاحتلال الذين كانوا يجوبون شوارع القاهرة ، يمرحون ويضحكون ويعاكسون النساء ويحولون بنات الناس المستورين إلى مومسات . والآن ـ ١٩٤٥ ـ دربهم السادات على استخدام القنابل الميلز . ومن فوق الجبل انقض الجيل الجديد على جيل ثورة ١٩١٩ . فشلت المحاولة الأولى لقتل مصطفى النحاس . بعدها بأسابيع دخل حسين توفيق إلى باحة العمارة رقم ١٤ بشارع عدلى باشا ، وأطلق ثلاث رصاصات على أمين عثمان ـ الذى كان صاعداً ليصنع من أعضاء رابطته « ليدرز » ـ فأرداه قتيلاً . فى المرتين كان أنور السادات ـ المخطط ـ جالساً فى سيارة ينتظر رفاقه ليهرب بهم فى الزحام الذى يعقب اطلاق النار .

مياه كثيرة مرت فى النهر بعد ذلك . اطبقت الزنازين ـ للمرة الثانيـة ـ على السادات ، وللمرة الأولى على رفاقه الصغار ، ثلاثون شهراً كاملة ، نـاءت خلالهـا الدولـة الشـائخـة بكـل كلكلهـا على الضـابط المفصـول المشرد : تهديد وترغيب ووعيد واغراء . حتى النهاية صمد . كان الوحيد الذى لم يفتح فمه بكلمة وقد اعترف كل رفاقه عليه . ماذا دار بذهنه خلال شهور الحبس الانفرادى الطويل المرير الذى لا يعرف عذابه إلاَّ من كابده من الرجال .

ولأنه أكبرهم سناً ـ ٢٦ عاماً آنذاك ـ وأغناهم تجربـة ، فقد أدرك أن الاعترافات المتبادلة ، قد خلقت احتقاراً متبادلاً يوشك أن يحطم الرجال الذين كانوا يوماً صفاً واحداً يستعذب الموت فداء للوطن ولرفاق الصف . وأن استمر هذا المنـاخ سيمزق هـذا الشباب الصغيـر ويشوهـه ، فيفقده الوطن إلى الأبد . . فملك ـ هو الذى لو أخذ القضـاء باعتـرافاتهم عليـه لشنق بالتأكيد ـ صفاء الذهن ودعاهم للتسامح . وقادهم فى معارك صغيرة ضد ادارة السجن ، أعادت لهم توازنهم النفسى وحررتهم من احتقارهم لذواتهم . وفى المحكمة صرخ فى وجه النائب العام ،محتـجاً حين جـاء يسحب كلمات قالها وكيله المترافـع ضد الاحتـلال ، فأزاحت غـضبتـه رماداً كثيراً وتذكر الواقفون فى القفص حوله ، أنهم مقاتلون من أجل وطن وشعب ، وليسوا مجرد معترفين ، لعب بهم ضابط الأمن السياسى ليذلوا كبرياءهم الرفيع . وكانت تلك قمة السادات كمقاتل . . وإنسان .

أيامها كانت مصر تنتفض من أقصاها لأقصاها . أصبح السلاح لعبـة الجيـل الجديـد ، انتشر لصـوص الكامبـات يسرقـون سلاح المحتلين . اختلط المقاتلون باللصوص بالمغامرين بتجار السلاح . اكوام الرصـاص والقنابل والبنادق التى تركتهـا الجيوش المتحـاربة فى الصحـراء الغربيـة

تسللت إلى يـد شباب كـان مقدراً عليـه أن يلغ فى الدم لأن الـوطن لن يتحرر إلاَّ به . لم يكن السادات وجماعته سوى قطرة فى بحر العنف الذى ينبىء بمخاض ميلاد مصر الجديدة : مصر التى لا يأكل الناس فيها زبالة جيش الاحتلال فتنتشر الكوليرا والبلاجرا والحمى الراجعة ويمـوت آلاف الأ... اء فى الطرقات والمعازل .

حين خرج السادات من السجن ، بحكم براءة ، كانت شمس النظام القديم تغرب ، وبعـدها بسنـوات قليلة ، انقض أولاد الأفندية على من منحوهم كروت التوصية ، وانهار عالم بكل رموزه ، وبدأ عالم جديد !

لكنه قبل أن ينهار كان عبود الزمـر قد ولـد فى سنة من سنـوات آخر الأربعينات ، فى قرية ناهيا القريبة من القاهـرة من أسرة منحت تـأييدهـا للثورة العرابية ، وكان جندى بوليس فقير قد رزق بـولد عـرف فيما بعـد باسم : طه السماوى . وكان مقدراً لكل منهما أن يلعب ـ فيما بعد ـ دوراً فى مقتل السادات .

●● مـا العلاقـة بين السادات الـذى قتله الاسـلامبـولى ورفـاقـه ، والسادات الذى قتل مع رفاقه أمين عثمان ؟!

●● أين سادات السبعينيات من سادات الأربعينيات ؟

●● ماذا جرى للرجل فحوله هذا التحول الغريب؟! . وفى أى لحظة من عمره العريض يكمن سرة يوم مـاتت ابنته جـوعاً ؟ . أم يـوم مد يـده يتكفف الناس القوت كى يستمر كوم اللحم الذى تركه بلا زاد ؟

●● كيف تحـول الرجـل الزاهـد المتقشف إلى مهراجـاً : صاحب بـلاط وحاشيـة ومضحكين وبوليس يفعـل ما فعله ابـراهيم أمام ومحمـد الجزار وتوفيق السعيد مع رفاقه قبل أربعين عاماً . .

●● أهـو الثأر من سنـوات الجوع والفقـر والتشـرد ؟ . أهـو شبـابـه المخطوف المسلوب الذى منحه لمصر غيـر باخـل أو متردد ؟ . ثم جـاء الزمن الذى رأى أن من حقه فيه أن يسترد كل ذلك ، فيثرى ويثرى ابناؤه ويشبع ويشبع أشقاؤه ، ويعوض سنـوات الحرمـان ؟ . ويدفـع له الـوطن دينه ؟ .

●● أهى السنوات العشرين التى قضاها بجوار عبد الناصر ، بلا جاه ولا نفوذ ولا كلمة مسموعة ، كامناً ـ كأولاد الليل ـ فى الظل ينتظر فـرصاً يهتبلها ليأخذ ما يظن أنه حقه . يصعد من حوله رجال ، كان يرى أنهم لم يدفعوا ما دفع . . ولم يضحوا كما ضحى ، ولم يمنحوا مصر شبابهم كما منح ؟ .

كان السادات هو الذى منح الجماعات الاسلاميـة « كارت تـوصية » لكى تستأنف نشاطها ، وتواصـل عملها ، وظلت لفتـرة طويلة تنشط فى حماية نظامه ، وبتشجيـع رجـالـه . كـان الزمن زمن التحـالف للثأر من ذكرى عبد الناصر . وكان جرح الأخوان المسلمين طرياً لم يزل، تفتحت عيون الجيل الجديد من ابنـائهم على آباء غيبتهم السجـون . وذكريـات تعذيب يبلغ من البشاعة حداً لا يطبقه جماد .

أخذ الجميع كروت التوصيـة ، ساروا معـه شوطـاً فى الطريق ، آن يفترق الصحاب ، بهتـت صـورة ثائـر الأربعينات . تنـاسخت روح أمين عثمان فى جسد السادات الشيخ . فى خطبه الأخيرة ـ وخاصة بعد زيارة القدس ـ نفس المعانى التى قالها أمين عثمان يوماً : انجلترا غلبت المانيا فى الحرب . . فيه ناس مجانين عايزة تحاربها . .

. . . .

افتتح الملازم أول عطا طايل حميد رحيل (٢٦ سنة) محضر التحقيق معه باسم الله ، تلى قوله عزَّ وجل :

﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن، والجروح قصاص ﴾ .

صدق الله العظيم . .

. . والحياة تمضى !

(*) « الأهالى » العدد ٥٢ فى ٦ أكتوبر ١٩٨٢ .

رجلان في زمن غادر

١ ـ الرحيل :

التقيت بعبد الفتاح الجمل صدفة فى بيت صديق فلسطينى . جاء متأخراً ، ولم أكن أعلم أنه مدعو مثلى ليشاهد ـ بالفيديو ـ أفلاماً تقص مشاهد رحيل المقاومة الفلسطينية من بيروت ، لم أدهش حين رأيته ، فطوال عشرين عاماً عرفته فيها ، كنت ألقاه معظم الأحيان بالصدفة : سارحاً فى الطريق ، أو جالساً على مقهى ، أو واقفاً أمام رفوف مكتبه . وفى كل مرة أشعر كأننى لم أفارقه يوماً . .

وحين جلس إلى جوارى أمام شاشة التليفزيون ، بدأ وكأنه لم يتغير أبداً عن اليوم الذى عرفته فيه أوائل الستينات . دون مناسبة ظاهرة سألت نفسى : أكانت تلك الشعيرات البيضاء فى فودية موجودة آنذاك ؟ . أم أنها تسللت إلى الوجه الضحوك فيما تلا ذلك من أيام ؟ . عصتنى الذاكرة . .

فى استراحة قصيرة بين مشاهد الرحيل ، مال على . . همس فى أذنى :

ـ أنا كمان رحلت . . طلبت إحالة نفسي للمعاش . . وانتهى الأمر . .

كان الخبر مفاجئاً وغادراً . ولعله هو نفسه لم يقدر معناه بالنسبة لى . تجنبت أن أنظر إليه . ركزت انتباهى فيما هو أمامى : فدائيون مبتسمون . مودعون يرفعون أيديهم بعلامات النصر . طاقات زهر . . أحضان وقبلات وزغاريد ودموع تفيض بها عيون لم تنم . كل ذلك جميل لكنه لا يطمس الحقيقة التى ملأت قلبى الموجوع : ها نحن نغادر ديارنا بأمر الغرباء ، ونتركهم فيها أو نتركها لهم . .

فكيف استطاع قلب جيلنا التعس أن يتحمل كل هذا العناء دون أن ينفجر ؟ .

وحين كان جيلنا يتحسس طريقة ليقول كلمته ، قادماً من القرى والنجوع وشوارع المدن الخلفية ، محملاً بخجل الريفيين وشكوكهم فى أهل البندر ، وببعض جلافة ولدتها حياة قاسية تفتقد للرقة وتخلو من النعومة ، التقينا بعبد الفتاح الجمل فى مكتب لم يغيره الزمن ، بركن قصى من صالة تحرير « المساء » الواسعة ، ظل ما يقرب من ربع قرن ، معمل تفريغ لمواهب متجددة فى القصة والشعر والنقد والصحافة . .

ويوماً بعد آخر تخلقت له فى وجداننا صورة ظلت تتواتر بيننا حتى نقلناها إلى أجيال أخرى تلتنا لعلها جاءت من نفس الحوارى والنجوع والقرى ، تحمل قصصاً وأشعاراً ومقالات فى النقد والتاريخ وفى الفكر والفلسفة ، تصدر عن قلوب تفيض بالأشواق لعالم جديد : شباب متمرد غضوب ، يخدش أبواب الغد الموصدة بالظفر والناب . يحلم بالدنيا وبالناس ، ويذوب شوقاً للتعبير عنهم ، والتواصل معهم . يقرأ تاريخ الوطن ، ويتغنى بمواويل الفلاحين ، ويتغزل فى اسطوات المكن . .

ويتوق لبلد بلا بلهارسيا أو أنكلستوما تطارد مباحثه اللصوص لا المفكرين ، والقوادين لا الحالمين بالغد ، وينتظر أمه بدون اسرائيل . وبلا مخيمات لاجئين . يقترض ثمن الكتب والسجائر ، ويهرب من المقاهى لأنه لم يدفع المتراكم من الحساب ، تضيق به الدنيا ، ويضيق بها أحياناً ، فينغمس فى آكل نفسه وينهش لحوم الناس .

لأنفسنا ـ ولمن جاءوا بعدنا كنا نقول :

ـ اذهب لعبد الفتاح الجمل . . ستجده جالساً فى ركنه العتيد بصالة تحرير المساء . . لن يسألك عن اسمك أو اسرتك أو سابق شهرتك أو مذهبك السياسى أو موقف الحكومة منك ولن يطلب أن تنافقه أو تمدحه أو تتذلل له ، قدم له ما كتبت . . إذا كنت موهوباً فستجد ما كتبته منشوراً فى الملحق الأدبي للمساء ، أو فى صفحتها الثامنة . .

وهكذا ظل « عبد الفتاح الجمل » عشرين عاماً أو يزيد ، يزرع الزهور ويستنبت المواهب ، ويسعى لتجميل الوجه الحضارى للوطن ، لم يفقد يوماً الثقة فى أن أرضه الولود ستنبت جيلاً جديداً يخمش بأظافره أبواب الغد ، وظل ينتظره فى مكانه العتيد ، ليرعاه ويحنو عليه ، ويصقل عثراته بذوقه الأدبى الرفيع ، ويضرب له ـ دون تعمد أو تحذلق أو جعجعة ـ مثلاً عليا فى الترفع عن الصغائر وشفافية الروح ، وفى الانتماء والعطاء . .

كنت أحسب ضحكته المترعة استهتاراً بهموم الدنيا ، وأحياناً كنت أحسده عليها ، وأتمنى أن آخذ الحياة ببساطة كما يأخذها ، لكننى أدركت ـ متأخراً بعض الشيء ـ أنها تعال على تفاهات كثيرة ، ونفاذ لجوهر الحياة والناس ، ولعلى لم أر رجلاً يشعر بالمسؤولية ويعبد العمل والعطاء

ويتخذهما مقياساً لقيمة الآخرين مثله ، ولو لم يكن كذلك لما ارتكب فى وضح النهار جريمته الوحشية الوحيدة ، فاغتال موهبته المتألقة ، وفضل أن يرى نفسه فى الآخرين ، بدلاً من أن يراهم فى نفسه .

على الشاشة كان الفدائيون يرحلون . وكنت قد جريت فى الزمن عشرين عاماً أبحث عن أحلام جيلنا التى اغتالتها الأيام بكل قسوة وجلافة . . إذن فقد غادر عبد الفتاح الجمل مكتبه العتيد فى المساء . ومنذ سنوات وهو يذهب إليه فلا يطلب منه أحد عملاً : هذا زمن أحمد عدوية وكتكوت الأمير وحبه فوق وحبه تحت ومشى حالك . فى الشهور الأخيرة قالوا له : أنت موظف . . تعال كل يوم . وقع فى دفتر الحضور فى الثامنة . الزم مكتبك حتى الثالثة . ابق جالساً بلا عمل . تفرج على ما نفعل . اسمع عدويه وكتكوت . غن معنا : احنا اللى دهنا الهوا دوكو .

طاوعهم . يوماً واثنين واسبوعاً وشهر . لم يستطع أن يحتمل . بدأوا يخصمون أيام الغياب من مرتبه . لم يهتم : شهراً واثنين . فى الثالث قال : أمامى على المعاش ست سنوات . سلام عليكم . قالوا : فى ستين سلامة . وقفوا على مكتبه العتيد . مشتل المواهب ربع قرن أو يزيد . تحزموا . رقصوا . غنوا : احنا اللى دهنا الهوا دوكو .

كان الليل قد انتصف حين غادرنى عبد الفتاح الجمل فى ميدان رمسيس . . تأملت كيانه الدقيق وهو يدب خفيفاً بجوار التمثال الشامخ الذى تحدى القرون . يحتضن حقيبة لا أشك أنها كالعادة تحمل قصصاً وأشعاراً كتبها جيل شاب جديد ، جاء يخمش بأظافره أبواب الغد الموصدة . . قلت لزوجتى :

ـ يقولون أن هناك مشروع قانون يقضى بإعدام الذين يبورون الأرض . . هل قرأت جديداً عنه ؟!

نظرت إلىّ بدهشة ولم تجب .

٢ ـ الفلسطينى التائه :

عشت ثلاثة أسابيع أتابع أنباء المفاوضات التى كان الأستاذ خالد محيى الدين وصلاح جلال نقيب الصحفيين يجريانها مع السلطات المختصة للسماح للكاتب والمؤرخ الفلسطينى عبد القادر ياسين بدخول القاهرة وطوال تلك الفترة كان عبد القادر يعيش فى فندق المطار . ولعلى كنت متفائلاً أكثر مما ينبغى فقد كان بينى وبينه جدول أعمال انقطع منذ أربع سنوات ، وكنت مشوقاً لاستئناف الحوار حوله . وحين قال صديق فى التليفون أن المفاوضات قد فشلت ، شعرت أن يداً جلفة قد اقتحمت صدرى . . وعصرت قلبى . .

كان آخر لقاء جمع بيننا فى فندق انترناسيونال تونس قبل ستة شهور . التقيت به صدفة فى بهو الفندق . كان معه كامل خلة ومحمود درويش وأحمد أبو نار ومنح الصلح وكوكبة من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين واللبنانيين . وكنت أصحب كامل زهيرى وفريدة النقاش . . وكان محمود العالم وأديب ديمترى وغالى شكرى قد جاءوا من باريس ، وتصاعدت ضحكاتنا فى بهو الفندق ، تدافعنا نتكلم فى وقت واحد حتى عجزنا عن سماع ما يقال . بدأ الأمر مؤسياً ، فها هى أشواق وذكريات وأيام عمر مشترك ، تقف دونها بوابات حدود . وضباط جوازات ، وقوائم منع من الدخول ومن السفر ، وليس موضوع الغزو الامبريالى الصهيونى للثقافة العربية الذى جئنا لنتناقش حوله فى حاجة إلى مناقشة ، بعد أن أصبحنا

نحن العرب المصريين لا نستطيع أن نلقى العرب الآخرين إلاَّ إذا غادرنا حدودنا !

وكان عبد القادر ياسين بالنسبة لى أحد معالم الحياة الثقافية فى مصر ولا أذكر متى ، ولا أين عرفته ، إذ كان يتمتع بحيوية خارقة ، بحيث يستطيع الانسان أن يلتقى به فى أماكن عديدة ، حتى أننى احياناً كدت أشك فى أنه يستطيع أن يوجد فى مكانين فى ذات اللحظة : فى دور الصحف ودار الكتب ومقاهى الأدباء ومنازل الأصدقاء المشتركين ، وكان يحمل دائماً جدول أعمال لمواعيده ، وينفذها بدقة غير معهودة فينا نحن العرب !

وفى بداية معرفتى به كنت أحسبه مصرياً ، إذ كان مطلعاً على تاريخ مصر ، وواحداً من قرائه الأذكياء الذين لا تفوتهم بعض ملامحه الهامشية ، وكان يحدثنى عن الوفد والنحاس والأخوان المسلمين والسعديين حديث العارف . ولم تنبىء قامته الطويلة الممشوقة والجيم المعطشة على لسانه بشىء إلاَّ احتمال كونه أحد ابناء الصعيد ، وكانت دائرة من يعرفونه ويعرفهم واسعة ، حتى ندر أن وجدت أحداً من أصدقائى لا يعرفه .

وحين علمت أنه فلسطينى من غزة ، لم أدهش ، فمعظم العرب الذين التقيت بهم قد اعطونى نفس الإحساس ، وسواه فى البداية أو فى النهاية ، كنت أنسى ـ مع العشرة ـ الأقطار التى ينتمون إليها ، ولا تبقى سوى فروق هامشية ، كتلك التى نراها فى لهجات المصريين أنفسهم : دمايطة ومنوفيين وصعايدة واسكندرانيين وأولاد بلد وأولاد أيه !

وكانوا قد جاءوا بعبد القادر ياسين من غزة فى عام ١٩٥٩ ابان حملة

الاعتقالات التى شملت الشيوعيين المصريين ، ووضعوه فى معتقل الواحات . فحين تكون فلسطينياً كعبد القادر ، فأنت بلا وطن ، وبلا سجن . وبهذا أصبح كثيرون منهم ـ وخاصة المشتغلون بالسياسة ـ خبراء بتقاليد السجون العربية (والاسرائيلية أيضاً) ولعلهم العرب الوحيدون الذين يستطيعون المفاضلة بين نظم السجون فى أكثر من قطر عربى ، ويملكون الميزة التى عزت على المشتغلين بسياسة الأمة من العرب غير الفلسطينيين : حق تقرير مصيرهم واختيار القطر الذى فيه يسجنون !

عاش عبد القادر ياسين فى مصر عشرين عاماً أو يزيد ، وفيها تزوج من فلسطينية ، وبحث عن شقة ، ودفع لها خلواً كما ندفع نحن المصريين ، وأثثها وملأها بالكتب والأوراق والأقلام وقطع الأثاث القديم وعمل موظفاً بوزارة الصحة ، وأميناً لاتحاد الكتاب الفلسطينيين ، وحفظ الشوارع وأرقام الأتوبيسات واسعار الخضراوات وملامح الناس ، وصادق كثيرين ، ودفع بأبنائه لمدارسها . وبكى معنا حين كان اليوم ٥ يونيو ١٩٦٧ اختلطت دموعه بدموعنا بكينا غزوة وسيناء ، وبكاهما أيضاً ، بعدت الديار وغاب الوطن ، فمتى يؤوب « الغريب » . . وإلى متى يطول الترحال ؟!

فى يوم ما من سنة ١٩٧٨ ، حملوا عبد القادر ياسين عنوة وضعوه فى طائرة ، طردوه من مصر . وكانت الوفود الاسرائيلية أيامها فى القاهرة . لم أستطع أن أودعه ، أو أرد له ما أقترضته من مكتبته ، لم يستطع أن يودع زوجته أو يرى أطفاله ، أو يلقى نظرة أخيرة على قطع الأثاث ومخطوطات الكتب التى لم تتم !

رأيته لآخر مرة فى بهو الفندق التونسى ، وكان الليل قد انتصف ،

والهدوء شامل ، جاء ليقول أنه سيسافر فى الفجر ، احتضنته مودعاً ، قلت له ما كنت أقوله لكل العرب الذى التقيت بهم هناك :

ـ نشوفك فى مصر قريباً إن شاء الله !

قال : بالتأكيد !

فى أى سماء أنت الآن يا عبد القادر ؟ فوق أى أرض تطير طائرتك أيها الفلسطينى التائه . فى بلدنا سفير إسرائيلي يسكن فى شقة على النيل ، ويملك وقاحة تقديم الاحتجاجات على ما نكتب . أما أنت فالقاهرة التى عرفتك ضاحكاً وباكياً وأباً وصديقاً وعاشقاً ، قد ضاقت بك . .

(*) الأهالى ، ـ ٢٠ أكتوبر ١٩٨٢ .

ارفعوا أيديكم عن اسماعيل المهدوى

فى بريد « الأهالى » اليوم رسالة من اسماعيل المهدوى ، أرسلها ـ كالعادة ـ من قسم ١٢ بمستشفى المجانين بالعباسية . وجدتها على مكتبى . تركت كل شىء وتفرغت لها . منذ عشر سنوات وأنا أفعل ذلك : التقطت عينى أولى رسائله ذات يوم من عام ١٩٧٣ . كانت مُعَنْونه باسم أحد الزملاء من محررى الجمهورية . استأذنته أن أقرأها .

منذ ذلك الحين ، ابحث عن رسائل المهدوى . اسأل عنها الأصدقاء . استأذنهم فى قراءتها والاحتفاظ بها أحاول أن أجمع ما فاتنى منها . أضمها إلى ثروتى المتواضعة من وثائق تاريخنا الحديث والمعاصر . أعود إليها كثيراً حين يلم بى حزن ، أو تنوشنى حالة اكتئاب ، أو تزدحم الدنيا حولى بمشاعر البلادة .

وراء هذا الاهتمام دافع ربما لا يعرفه اسماعيل المهدوى . . فهو واحد ممن شاركوا فى تكوين عقل جيلنا . . وما زلت أذكر بحثنا الملهوف عن ترجمته التى لا تتكرر لكتاب المناضل الفرنسى « جورج

بوليتزير » ، التى صدرت فى الخمسينات بعنوان « المبادىء الأساسية للفلسفة » وحين قرأناها زرعت فى طريقنا علامات استفهام ، قادتنا إلى عذاب المسير فى طريق النشوات العليا : خرجنا من قمقم انانيتنا لننتمى للناس فكشفنا بذلك ظهورنا لمن يحملون السياط . .

وحين تلفتنا حولنا لنتعرف بالرجل لم نجده : كان واحداً ممن حملتهم عواصف ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٥٩ إلى المعتقلات والسجون ، ثم إلى منفى الواحات البعيد ، ليعيشوا به خمس سنوات طويلة مريرة ، يقاومون القيظ والزمهرير والقهر والجوع ، والوحدة والتوحش فى الفلوات ، ويضربون أمثلة للإنسان فى أنقى حالات انسانيته . صلباً شامخاً . . قوياً . . وجسوراً . . يأبى أن يعيش إلاّ كما اختار لنفسه أو يموت ـ كشهدى عطية وفريد حداد ـ دون كلمته .

فى تلك السنوات ، كان « اسماعيل المهدوى » أحد الرموز التى نتبادل اسماءها ، ونعيد قراءة ما كتبت ، ونردد ـ همساً ـ القليل الذى كنا نعرفه عنها : طالب نابغة من طلبة الجامعة . أنهى دراسته للفلسفة بتفوق ، والمستقبل أمامه رحب وفسيح لو راهن على نفسه فاختار الانتماء إليها فرطن كما يرطن الآخرين ، وسخر مواهبه المتعددة ، وعقله المتوهج الذكى لتأييد ما هو قائم . وما أكثر الفرص التى تتاح ـ فى عالمنا الثالث ـ لمثقف يحمل بضاعة ممتازة كالتى يحملها المهدوى ، لو اختار أن يبيعها فى سوق الصحافة والإذاعة والجامعات وكواليس الحكم والحكومات ، ولكنه آثر الانتماء للغد الآتى ، وسار على طريق النشوات العليا : اختار عذابه وأشواكه ، منافيه وسجونه . . كشف ظهره لمن يحملون السياط !

وحين عاد اسماعيل المهدوى من منفى الواحات ـ مع غيره من

الشيوعيين المصريين ـ كانت مياه كثيرة قد جرت فى النهر ، وتغيرت أشياء عديدة ، فيهم وفينا ، وفى الدنيا حولنا ، لكننا لم نفقد اليقين بأن موقف الانسان من الأشياء قيمة ثابتة لا تتغير ، ولم تهتز لحظة واحدة ثقتنا فى أن الذين اختاروا أن يفعلوا شيئاً غير الانتماء لأنفسهم ، ودفعوا ثمن اختيارهم بشموخ وكبرياء ، كانوا يعبرون عن أنقى ما فى الانسان ، ويحفرون بأظافرهم فى الصخر علامة على طريق طويل ، لم يكونوا أول من ارتاده ، ولن يكون من جاء بعدهم آخر من يسير عليه . . قد يتغيرون وقد نتغير . . وقد تتغير الدنيا ، لكن كل عواصف التاريخ أعجز من أن تمحو من الصخر علامة خطها ـ بالعذاب ـ كل من مهد خطوة على طريق تحرير الانسان من القهر والاستغلال والأكذوبة . .

وهكذا تابعنا « اسماعيل المهدوى » ـ فى النصف الثانى من الستينيات ـ كاتباً لامعاً فى « الجمهورية » و « المجلة » و « الثقافة » وسكرتيراً لتحرير « الكاتب » ومحرراً لصفحة « الفكر والرأى » فى المساء وقرأنا ترجمته لرائعة كازنتزاكس « الأخوة الأعداء » وكتاباته عن « بافلوف » وحواراته عن العلوم الانسانية : نرضى ونغضب ، ونتفق ونختلف وفى كل هذا نفكر . .

كان الزمن ، زمن الأحلام المستحيلة ، بدا كل شىء ـ على السطح ـ لامعاً وبراقاً وباعثاً على الرضى . على ايقاع الأناشيد الحماسية بهتت مخاوف كثيرة . انمحت ـ إلى حين ـ ذكريات العذاب فى أوردى أبو زعبل . التأمت ـ على صديد ـ جروح الأقدام الحافية التى انغرست فيها سنون البازلت . أصبح زمهرير منفى الواحات ، تجاعيد على قلوب تحاول أن تضحك لأن هناك قانوناً يحرم العبوس ، أما من ماتوا تحت السياط وبضربات الشوم وبنقص الطعام وبافتقار الحرية فهم مجرد صف

أول من الآلاف الـذين سيقتلون فى ٥ يونيـو ١٩٦٧ ، لتـظل جثثهم فى الصحراء ، يلتهمها البوم ، وتحوم حولها الغربان !

لن يعرف أحد ما جرى لاسماعيل المهدوى فيما تلا ٥ يونيو ١٩٦٧ ، إلَّا إذا عرفنا نحن المصريين جميعاً ماذا جرى لنا تحديداً فى هذا اليوم لا تبحثوا ـ فقط ـ عما جرى فى ميادين القتال ، ولكن فتشوا عما جرى أيضاً فى القلوب والنفـوس والعقـول . اسـألـوا الآمـال المحتـرقـة والأحـلام المُحْبـطة ، والتضحيات المهـدرة ، والصبر على المكـاره ، واستخبـروا أنـاشيد الإذاعـة ، وأكـاذيب الصحف ، وعصى المخبـرين ، وكـرابيـج المعذبين . احسبوا الفاصل بين ذروة المجد وقاع العار ، والمسافة بين وهج الانتصار وظلمة الهزيمة ، احصوا الانهيارات العصبية ، واسألوا كل محللى التاريخ ، أكان باستـطاعة أحـد منهم أن يتنبأ بمـا جرى . . ومـا كان !

. . أما المهدوى فتقول الوقائع أنه فى يوم ما من سنة ١٩٦٨ ، كان قد ضاق بكل شىء . . أخذ إجازة بدون مرتب لمدة عام . . وسافر إلى فرنسا ليحضر رسالة الدكتوراه فى الفلسفة وبعد ثلاثة شهور من سفره ، وصلته رسـالة من جـريدة « الجمهـورية » تخـطره بأن إجـازته قـد انتهت ، وأن الجمهـورية تعتبـره مستقيلاً من عمله . وفى بـاريس تعرض لمضـايقات شتى ، ذات طابع سياسى ، فيقطع إجازته الـدراسية ويعـود إلى مصر ، ويبدأ رحلة طويلة مجهدة ، ليسترد حقـه فى أن يعمل ويكتب ، وتنهـال شكـاواه وقضايـاه على المسؤولين وعلى المحاكم ، ويـومـاً بعـد آخـر ، تتحول الشكاوى إلى صرخات سياسية ضد النظام ، وتصدر أحكام قضائية لصالحه ، وقبل أن تنفذ يأتيه زوار الفجر ذات يوم من ربيع ١٩٧٠ ، ليجد

نفسه أمام صهيب حافظ ، وكيل نيابة أمن الدولة العليا ، الذى يواجهه بأنه مقبوض عليه لأنه كتب وأعطى وأرسل أوراقاً فيها دعاية ضد الدولة !

وبعد أربعة أيام من القبض عليه . وجد نفسه فى مستشفى المجانين بالعباسية ، وبعد ستة أشهر نقلوه إلى مستشفى الخانكة ، ليبقى بها عاماً ، ثم أعيد إلى العباسية ، حيث ما زال هناك حتى هذه اللحظة ، ومنذ اثنتى عشرة عاماً ونصف !

وطوال تلك السنوات و « اسماعيل المهدوى » يكتب آلاف الخطابات والأوراق ، يرسلها بالبريد المسجل إلى كل من يعنيهم أمر الثقافة والفكر والقانون فى هذا الوطن ، لرجال النيابة ودور الصحف ، وإلى من يعرف ومن لا يعرف من الكتّاب والأدباء والمفكرين ، ويعيد استنساخ معظمها ، ويجدد ارساله إلى كل من يلى منصب النائب العام أو ينتخب نقيباً للصحفيين ، تتضمن دراسات فلسفية وسياسية على درجة عالية من العمق تشهد بأن هذا العقل المشتعل ، الذكى المتوهج ، لا يمكن أن يقبل بوضعه فى مستشفى للمجانين ، إلاّ مجانين حقيقيين ، ولا يقبل الصمت على ما جرى ويجرى له ، إلاّ البلداء وفاقدو الحس ، وناقصو الإدراك والضمير !

وما تحمله رسائل « اسماعيل المهدوى » من وقائع عما يجرى له ويجرى لغيره من نزلاء مستشفى المجانين بالعباسية وغيرها من مستشفيات الأمراض العقلية ، تؤكد أن هذه المستشفيات هى حظائر يفتقد الذين يديرونها ويشرفون عليها لأبسط صفات الانسان ، وينبغى أن يحاسبوا جميعاً على إجرامهم فى حق التعساء الذين يقيمون بها دون علاج أو احترام للآدمية أو ذرة من الإنسانية يتعرضون للضرب والإهانة ، ولما

يسميه المهدوى بعمليات « نفخ المخ » ، وهى وقائع ليست فى حاجة إلى مزيد من البراهين ، لأنها شائعة ومعروفة ، ويكفى جرائم القتل التى تحدث فيها بين الحين والآخر ، والتى تكررت على نحو يلفت النظر فى السنوات الأخيرة .

والذين يقرأون رسائل « اسماعيل المهدوى » ، يشعرون بأن حزن الرجل على صمت الضمير العام ، أكثر من ألمه مما يعانيه ، وأن مرضه الحقيقى هو ذعره من البلادة التى أصبحت طابعاً عاماً ، تجاه أحزان الآخرين وعذابهم ، حتى أصبح العالم فى نظره مجموعة من المتواطئين على إهدار آدمية الإنسان وكرامته .

وصحيح أن الظروف لم تتح لكثيرين ممن أحبوا « اسماعيل المهدوى » وممن تعلموا على يديه ، ومن يؤمنون بأنه عقلية مصرية نادرة ، أن يفعلوا شيئاً يردون به ما يتعرض له ، ربما لأن الذين خارج مستشفى المجانين ، لم يكونوا ـ طوال السنوات العشر التى انقضت ـ فى أوضاع افضل بكثير ممن كانوا بين أسوارها ، وصحيح أن أحداً منهم لم يكن يستطع أن يحتفظ بحريته لمدة عام كامل ، لأن أبواب الزنازين فى « مستشفيات » الخانكة والعباسية هى نفسها أبواب الزنازين فى « مستشفيات » « القلعة » و « طرة » و « أبى زعبل » و « الاستقبال » . . لكن ذلك على أى الأحوال لم يعد عذراً لأحد . . فإذا ظل « اسماعيل المهدوى » حيث هو الآن ، فليس لذلك معنى إلاَّ أن ضميرنا العام قد مات ، وليس لذلك معنى إلاَّ أننا سنقاد واحداً بعد الآخر لنتعرض لما يتعرض له . .

لقد آن الأوان ، ليكون الدفاع عن « اسماعيل المهدوى » قضية

ساخنة ، تفتح ملفات الاجرام الذى يجرى داخل مستشفيات الأمراض العقلية . . لا لننقذ هذه الموهبة المصرية العربية النادرة ، وندافع ـ فحسب ـ عن عقل ذكى متوهج مشتعل ، أعطى ـ وما زال يعطى ـ كتابة وتفكيراً ومواقف ، وهو خلف أسوار الرعب . . والتآمر والاستهانة بكل ما هو أنكى ، ولكن لندافع أيضاً ، عن آلاف من التعساء ، يقيمون داخل أسوار مستشفيات الأمراض العقلية ليس الصمت على ما يجرى لهم ، إلا إهدار لكل ما هو حضارة فى تاريخ هذا الوطن !

(*) « الأهالى » ـ العدد ٨٥ فى ١٧ نوفمبر ١٩٨٢ .

تغريبة اسماعيل المهدوى

انتابنى شعور جارف بالراحة ، عندما علمت أن السيارة قد غادرت الأسوار الخارجية لمستشفى المجانين بالعباسية وبداخلها « اسماعيل المهدوى » . . وحين تأكدت ـ قبل منتصف الليل ـ أنه قد استقر أخيراً . بحجرة فى « مستشفى بهمان » . نمت نوماً عميقاً ، خالياً ـ لأول مرة منذ زمن طويل ـ من الكوابيس !

وإذن فقد انتهت ـ بهذه البساطة ـ تغريبة الأعوام السبعة عشرة . وآن للمطارد تحت ظلمات الليل المتصل ، أن يستريح فى مقلة الشمس ، وأن يغادر ـ كسيدنا يونس ـ بطن الحوت . . آن لإسماعيل المهدوى أن ينام ليلة قرير العين . . لن يتهاوى مزلاج غرفته المحكم الإغلاق ، أمام دفعات من يسميهم فى رسائله بـ« زبانية أقذر وكر للإجرام الوحشى المفلوت فى سلخانة مستشفى المجانين » ـ لن يقيدونه بقميص الأكتاف . ويخمشونه بأظافرهم الجلفة . ويقودونه ـ مشلول الإرادة ـ إلى جلسات الكهرباء !

بدأ الأمر لبساطته داعياً للذهول وحين استيقظت فى الصباح ، بدأ الكابوس الحقيقى ، وفى البداية شعرت برغبة عارمة فى أن أنادى بائع الفول ـ وكان قد استقر بمطعمه المتنقل تحت شرفتى أقول له :

ـ اسماعيل المهدوى خرج من مستشفى المجانين (!).

فهل انخفضت أسعار الفول ؟ وهل اعترف إسحاق شامير بأن هناك شيئاً اسمه الشعب الفلسطيني ، ومع أننى كبحت لسانى ، إلاَّ أننى لم أفلح فى ذلك طويلاً فهممت وأنا أتخطى عتبة العمارة ، أو أقول لبوابها :

ـ مش « اسماعيل المهدوى » خرج من مستشفى المجانين يا أبو على ؟

ليسألنى ذاهلاً :

ـ صحيح والنبى ؟! ازاى ؟!

فأقول : ولا حاجة مكالمتين تليفون من نقيب الصحفيين للنائب العام . . انتهى بعدهما الموضوع .

فهل يتطلب اتمام هاتين المكالمتين سبعة عشر عاماً بالتمام والكمال ؟.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يزعمون أن أعطال التليفونات قد انقرضت منذ زمن طويل .

ولماذا أهدرت وزارة الداخلية أموال الشعب فى شراء أحدث أجهزة التصنت على التليفونات .

ومع ذلك فأحمد ربك لأن مكالمة « المهدوى » قد تمت أخيراً ، وإن تأخرت كثيراً . ففى السادسة من صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ، أرسل قائد الجبهة الشرقية ـ فى الأردن ـ الفريق عبد المنعم رياض . إشارة لاسلكية بأن هناك نشاطاً زائداً فى طيران العدو ، وأن موجات من قاذفاته المقاتلة

تتجه إلى البحر المتوسط . ولأنهم كانوا ينتظرون العدو من الشرق . فإن أحداً لم يتسلم الإشارة ساعتها أو يـومها . ولم يتسلمهـا أحد حتى يـومنا هذا ، فيما عدا العدو بالطبع ، الذى وصل قبل وصولها وما يزال يواصل الوصول !

وفى قصة الإفـراج عن « **اسماعيل المهدوى** » ـ بعد سبعة عشر عاماً قضاها معتقلاً فى قسم ١٢ بمستشفى المجانين بالعباسية ـ عجائب تكفى للذهاب بعقل كل العقلاء ، وأعجبها جميعاً أن « المهدوى » احتفظ بعقله رغم هذا كله ، فبعد هذه السنوات الـطويلة المريـرة ، التى قضاهـا فيما يسميه « سلخانة للاجرام » يتمخض الأمر كله عن شىء أشبه بالنكتـة التى تدعو لقهقهة جنونية . وتكفى لايقاظ الموتى . وإقلاق راحة العظام وهى رميم .

بمنتهى البساطة . قالت مديرة المستشفى لابنه « طـارق المهدوى » حين ذهب ليتسلمه ، إنها راجعت أوراق ملفه الطبى ، وأنها لم تجد فى أوراقه ـ من الناحية الطبية المحضة ـ مبـرراً يستدعى بقـاءه فى مستشفى للمجانين ، وأنها على استعداد للإفراج عنه فوراً ، ليعود إلى منزله ، إذا وصلها أمر من النائب العام ، بحفظ التحقيق فى القضيـة السياسيـة التى اتهم فيها ، وأودع على ذمتها فى مستشفى الأمراض العقلية !

واتصـل الزميـل « مصباح قـطب » ـ المحرر بـالأهالى ـ بـالمستشـار « رجاء العربى » رئيس نيابة أمن الدولة ، تليفونياً . ليسأله عن الموضوع . فقال بمنتهى البساطة :

ـ يا سيدى . . نحن الـذين حققنا مـع « اسماعيـل المهدوى » وقـد حفـظت القضيـة فى اليـوم نفسـه الـذى أودع فيـه المهـدوى بمستشفى المجانين وهو ٩ أبريل ١٩٧٠ .

أما ثالثة العجائب . فقد حدثت فى مستشفى خاص للعلاج النفسى نقل إليه « **اسماعيل المهدوى** » ليعالج على نفقة نقابة الصحفيين هو « مستشفى بهمان » وهناك فحصه الأطباء ، وقالوا - بمنتهى البساطة أيضاً - أنه لا يعانى من أى مرض عقلى أو نفسى ، وانهم لا يرون مبرراً لدخوله المستشفى أو لإقامته فيه ، اللهم إلاَّ لكى يقضى فترة راحة يعالج خلالها من بعض الأمراض الجسدية التى أصابته بسبب نقص وسوء التغذية طوال ١٧ عاماً قضاها فى مستشفى المجانين .

وهكذا - وبمنتهى البساطة - ثبت أن المهدوى ليس مجنوناً ، وثبت أنه كان يمكن أن يغادر مستشفى المجانين منذ ١٧ عاماً ، لو أن الاتصالات التليفونية تتم على ما يرام ، ولو أن أحداً اهتم فعلاً بأن يحل فزورة « البيضة أولاً أم الفرخة أولاً » ، ليعرف من الذى أودعه مستشفى المجانين ، هل هى النيابة العامة التى تقول أنها حفظت قضيته منذ اللحظة التى أدخل فيها إلى المستشفى ، أم أن المسؤول عن ذلك ، هُم أطباء المستشفى الذى قالت مديرته ، أن ملفه الطبى لم يكن يتضمن أى سبب يدعو لاستمرار بقائه بها ، وأنهم كانوا فى انتظار قرار التصرف فى قضيته . .

أما « اسماعيل المهدوى » نفسه ، فقد روى القصة آلاف المرات ، وكتبها بخط يده فى آلاف الرسائل ، ظل - طوال سبعة عشر عاماً متصلة - يرسل منها مستنسخات لكل نائب عام جديد ، ولكل رئيس جديد لنيابة أمن الدولة العليا ، ولكل نقيب جديد للصحفيين ، وللكتاب والأدباء والصحفيين، وخلاصتها أنه بدأ العمل فى الصحافة بجريدة « المساء » فى أواخر عام ١٩٥٦ ، واعتقل - للمرة الثانية - فى ديسمبر ١٩٦٠ ، ليظل

فى المعتقل أربع سنوات ، أفرج عنه بعدها ، ليعود لممارسة عمله الصحفى فى جريدة « الجمهورية » وفجأة وفى أواخر عام ١٩٦٧ ، منعت « الجمهورية » نشر مقالاته ، دون سبب معلن ، وأوقفت زاوية كان يحررها فى عددها الأسبوعى . ثم انتدبته ـ دون أسباب معلنة أيضاً ـ لتحرير صفحة أسبوعية . فى جريدة « المساء » ـ التى تصدر هى الأخرى عن دار الجمهورية .

وفى أواخر يناير ١٩٦٨ . أوقفوا نشر الصفحة فجأة . وعندما سأل عن السبب قيل له أن أوامر سرية شفهية غير مسببة . قد صدرت من جهة ما بمنع نشر مقالاته . . وحين أيقن أنه لم يعد مرغوباً فيه . وأن كتاباته أصبحت من الممنوعات . قدم طلباً للحصول على اجازة بدون مرتب ، ليستكمل دراسته ويحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة ، وكانت أجهزة الأمن قد حالت بينه وبين السفر إلى فرنسا عام ١٩٥٤ ، بعد أن حصل على منحة من الحكومة الفرنسية لدراسة الدكتوراه ، باعتباره أول دفعة قسم الفلسفة بكلية آداب القاهرة عام ١٩٥٣ . وحصل « **اسماعيل المهدوى** » على إجازة سنة قابلة للتجديد ، وكانت « **الجمهورية** » كريمة ، حتى أنها منحته تذاكر سفر مجانية بالطائرة من القاهرة إلى باريس عبر الكويت ، وفجأة ، وقبل أن تنتهى الشهور الثلاثة بأيام . أرسلوا إليه يقولون ، أنهم قد سحبوا موافقتهم على اجازة العام ، وأنه سيعد مستقيلاً إذا تغيب يوماً واحداً بعد انتهاء إجازة الشهور الثلاثة .

وعاد المهدوى إلى القاهرة فى منتصف اكتوبر ١٩٦٨ ، وظل طوال عام وخمسة شهور ، يطرق ـ دون جدوى ـ أبواب مختلف الجهات الرسمية والقانونية ومكاتب العمل ، طالباً ـ كما يقول ـ ، بكل أدب

واحترام حق العمل ، إن لم يكن الرجوع إلى عمله الأصلى ممكناً ، وحين أصم الجميع آذانهم ، بدأ ـ منذ بداية عام ١٩٧٠ ـ يضمن شكاواه وبلاغاته الغزيرة ، دعاية سياسية ضد نظام الحكم ، وفى صباح اليوم ـ الذى صدر فى ضحاه ـ حكم القضاء باعتبار فصله من عمله بجريدة الجمهورية ، فصلاً تعسفياً ، وتعويضه عن هذا الفصل ، وقبل أن يتوجه إلى المحكمة ليسمع الحكم بنفسه ، دق باب منزله ، ضابط من مباحث أمن الدولة ، قاده إلى مبناها فى ميدان لاظوغلى . وهناك التقى بوكيل النائب العام الأستاذ « صهيب حافظ » الذى واجهه بأنه متهم أنه كتب وأعطى وأرسل أوراقاً فيها دعاية ضد الدولة » . . وببساطة اعترف المهدوى بالتهمة . وأضاف أنه أرسل هذه الأوراق للحكومة نفسها ، وبخطابات مسجلة وبعلم الوصول أيضاً . وأنه سيستمر فى ذلك لأنه يطالب بتحقيق قانونى ، فى الأسباب الحقيقية لفصله من عمله الصحفى . ومنعه من أى عمل . ومنع كتاباته من النشر وقدم للمحقق نسخة جديدة من الأوراق . وطلب الاطلاع على أمر القبض عليه !

لم يطلع أحد اسماعيل المهدوى على أمر القبض عليه ، وانتقل من مبنى مباحث أمن الدولة إلى سجن الاستئناف ، وبعد أربعة أيام اقتادوه إلى نيابة أمن الدولة ، ثم إلى مبنى النيابة العامة ، واكتشف أنهم ينهوون أوراق إيداعه فى مستشفى المجانين . وفى كل المكاتب التى طاف بها ، وهى تضم رجال قانون وقضاء ، صرخ المهدوى يطلب التحقيق ، ويطلب سماع أقواله ، أو على الأقل السماح له بالاطلاع على أمر القبض عليه . . فلم يرد عليه أحد واندفع الجميع يضحكون . .

وفيما بعد ، وفى نوفمبر ١٩٧٦ ، استطاع « اسماعيل المهدوى » أن

يطلع على أمر ايداعه فى مستشفى المجانين ، فإذا بـه يستند إلى قضيـة رقمهـا ٣١٥ حصر أمن دولـة عليا ، وإذا بـالمحضر الـذى حرره صهيب حافظ فى هذه القضية قد تضمن اتهـام اسماعيـل المهدوى بـالعجز عن الإدراك والتعبير . وإذا بمستشفى المجانين ، تؤكد ذلك رسمياً ، وتضيف إليه اعتباره مصاباً بعاهة فى العقل . . وإذا بالمحضر المذكور ، يقوم على بلاغ من صحيفة أمريكية اسمها مرجريت بالاس . كان المهدوى قد قابلها وأعطاها نسخة من شكاواه ، فأبلغت مباحث أمن الدولة وسلمتهم الأوراق التى أخذتها منه !

هذه هى القصة الغريبة ، التى انتهت بايداع صحفى وكـاتب ومفكر لامـع فى مستشفى المجـانين سبعـة عشـر عـامـاً . انتهت بمكـالمتين تليفونيتين ، ثبت بعدهما أنه عاقل ، وأنه ليس مصاباً بعاهة عقلية ، وأنه لا جريمة فى تلك الأوراق التى كان يحتج بهـا على محاولـة تجويعـه . وحرمانه من أن يأكل وأن يفكر !

وخلال سنوات التغريبة ، عانى اسماعيل المهدوى عذاباً لا يطيقه إلاَّ الجبـابرة وأصحـاب النفوس الكبـار والأذهان المتـوقـدة ، وظـل يقـاتـل بضراوة ، ورغم كل شىء ، لكى يستعيـد حريتـه ، رغم بشاعـة ما كـان يعانيه ، فأضرب عن الطعام أربع مرات ، فى أبريل ونوفمبر ١٩٧٠ وفى ينـاير وسبتمبـر ١٩٧٢ ، فكانـوا يعذبـونـه بجلسـات الكهـربـاء ، وبأدوية الغيبـوبة ، لكى يشفـونه ـ كمـا كانـوا يقولـون له ـ من مـرض الإضـراب والاحتجاج !

ولم يتوقف اسماعيل المهدوى طوال سنوات التغـريبة عن التفكير والكتابة والدراسة ، وعاش فى صومعته بالمستشفى ، يقرأ ويكتب آلاف

الصفحات فى الفكر والسياسة والفلسفة ، تشكل كتباً كاملة ، كان يستنسخ منها عشرات النسخ ، يرسلها لكل أصحاب العقول والضمائر والسلطة فى هذا الوطن !

وفى السنوات الخمس الأخيرة بدأ يكتب سلسلة من المقالات بعنوان « دردشات شخصية وثقافية من مستشفى المجانين » تجاوزت الخمسين . لعلها ـ مع رسائله الأخرى ـ أخطر الوثائق ، عن ذلك « الاجرام المفلوت » الذى يدلل المهدوى بوقائع بشعة على أنه يحكم مستشفيات المجانين فى بلادنا !

وبقاء المهدوى طوال هذه الأعوام بين جدران مستشفى المجانين . دون مبرر ـ كما تكشف أخيراً ـ لا بد أن يفتح تحقيقاً فى ظروف ادخاله المستشفى وظروف بقائه بها ، ومن البديهى أن يمتد هذا التحقيق ، وأن يتسع نطاقه ، ليشمل كل ما يجرى داخل أسوار هذه المستشفيات التى تضم بشراً تعساء ، لا يتقنون الشكوى ولا يستطيعونها ، خاصة وأننا كل عدة سنوات نسمع عن جرائم قتل تجرى بين أسوارها !

والمجرم الطليق فى جريمة تغريبة « اسماعيل المهدوى » هو تلك البلادة العامة ، التى اصبحنا جميعاً أسرى لها . منذ انهالت الطعنات على جسد الأمة . وتوارت الأحلام العظيمة ، والآمال الكبار ، فتساوى كل شىء ، بكل شىء . ولم يعد أحد يهتم بما يجرى حوله : جفت الدموع ، وتوطنت الفواجع ، وأصبح تعذيب انسان بين جدران السجون خبراً عادياً . وامتهان كرامة مواطن فى اتوبيس أو طابور جمعية . حكاية مكررة . وأكل القطط والكلاب فى مخيم للاجئين الفلسطنيين حادثة مسلية ، وأصبحت الخيانة حكمة ، والمساومة تعقل ، وبيع الأوطان

وطنية ، وكل شيء يجرى تحت أبصارنا وبعلمنا ، فلا نفعل أكثر مما فعله هؤلاء الذين ظن اسماعيل المهدوى يصرخ فيهم أنه يطلب تحقيقاً ، فلم يردوا عليه إلاّ بالضحك ! !

وليس لذلك معنى إلاّ أن الذين يصنعون المآسى التى نعيشها ، قد نجحوا أخيراً فى أن يطبعوا علاقاتنا بها ، وأن يدفعونا لاحتضانها ، وأن يفقدوا ضميرنا الجمعى يقظته ، وأن يميتوه بالتعود . . حتى أصبحنا فى حاجة لتلك الصرخة المدوية ، التى صاح بها حمدى بطل مسرحية ميخائيل رومان الشهيرة « العرضحالجى » الذى صرخ احتجاجاً على البلادة العامة :

ـ كلب ابن كلب اللى يقول ماليش دعوة . . كلب ابن كلب اللى يقول بيتى وعيالى وبس . . كلب ابن كلب اللى يقول لو كنت فى بلد تعبد التور . . . حش وارمى له !

أما المهمة العاجلة الآن ، فهى أن نزيح عن ضميرنا العام ، نحن الكتّاب والمثقفون والمسؤولون والمواطنون العرب ـ عبء جريمة التواطؤ بالصمت على جريمة احتجاز المهدوى فى مستشفى للمجانين ، واعتقاله سياسياً بين جدرانها كأن هناك أزمة فى الأماكن الصالحة للاعتقال ، أو أزمة فى العدد الكافى من المجانين ، ففى سنوات التغريبة ترك « اسماعيل المهدوى » ولديه أطفالاً زغب الحواصل ، وهو يعود اليوم فيجدهم أزواجاً وآباء ، ويعود ليجد نفسه بلا مسكن ولا عمل . . وبلا جدران أربعة تأويه ، وتعيد السكينة إلى نفسه الجسور التى لم تحطمها المحن !

فهل آن الأوان كى نلم أشلاء ضميرنا المبعثرة ، فنتعاون فى شراء

مسكن ، تـأوى جدرانـه الأربعة ، كـاتباً ومفكـراً وصحفياً وانسـاناً قـوى الـروح ، جسور القلب ، فتعيـد إليه السكينـة ، وتؤكد لـه أن الحياة بين العقلاء أفضل من الحياة بين المجانين ؟!

(*) « الأهالى » ـ العدد ٢٩٧ ـ ٢٧ يونيو ١٩٨٧ .

الزنزانات التي لم يغلقها أحد

تجمعت بين يدى ـ طوال الأسبوعين الماضيين ـ حصيلة جهد محررى « الأهالى » ، فى متابعة محاكمات الجهاد ، وشاءت الظروف أن التقي ببعض من تابعوا المحاكمات من غير الصحفيين ، وأن استقبل بعضاً من أقارب المتهمين ، جاءوا يحيطون « الأهالى » علماً بما جرى لأقاربهم ، ويطلبون عونها إن استطاعت . .

ولم يكن فيما سمعت من كل هذه المصادر شيء جديد . فطوال الأعوام الثلاثين التى انقضت ، ونحن نقرأ ونسمع ـ وأحياناً نشاهد ـ عن وقائع تعذيب تجرى فى السجون والمعتقلات ، يقوم بها ضباط وجنود ينتمون لأجهزة متعددة مثل المخابرات العامة ، والمباحث الجنائية العسكرية وضباط السجون الحربية والسجون العامة ،ويتعرض لها مصريون يجتهدون فى شؤون وطنهم على غير ما يرى الذين يحكمون ويتحكمون ، بحيث لم يعد فى مصر تيار سياسى معاصر ، لم يتعرض بعض المنتمين له ـ إن لم يكن معظمهم ـ للتعذيب البدنى ، يستوى فى

ذلك الشيوعيون والأخوان المسلمون والناصريون ، ومن لا ينتمون لهؤلاء أو لأولئك . .

ولأن فى مكتبتى قسم كـامـل ، يضم عشـرات الكتب والمقـالات والنشرات والقصاصات ، تروى كلها ذكريات الذين عـذبوا فى السجـون والمعتقلات ـ المصرية والعربية ـ فقد عدت إليها ، أقرأها ، ربمـا للمرة العشرين أو الثلاثين ، وكـان ذلك فى حـد ذاته عـذاباً لا يـطاق ، لكننى واصلت القراءة بدافـع لم استطع أن أتبينـه إلَّا بعد أن أتيت على كـل ما بـذلـك القسم من كتب ، آنـذاك ادركت أننى فعلت ذلـك لكى اختبـر مشـاعـرى تجـاه وقـائـع التعـذيب ، فقـد خشيت أن يكـون تكـرارهـا واستمرارها ، وعجز الرأى العام فى مصر عن ايقافها بموقف صريح ممن يأمرون بالتعذيب أو ينفذونه ، قد جعل منـه خبراً عـادياً يسمعـه الناس ، ويتلذذون بترديده ، ويتسلون بالهمس به . . ولا شىء بعد !

وحين طويت آخر صفحة من آخر كتاب ، كانت حجرتى قد ازدحمت بمصريين من كل اتجاه وكل اجتهاد ، بعضهم ينتمى لجيلنا ، أو لأجيال أخرى سبقتنا أو تلتنا ، منهم من يحملون على أجسادهم آثار السياط التى سلخت ظهورهم ، والشوم الذى حط أطرافهم ، والسجائر المشتعلة التى اطفئت فى بطونهم ، والتيار الكهربائى الـذى فكك جهـازهم العصبى ، والأيدى المجرمة التى نزعت شعـر العانـة ، أو وضعت العصى فى أدبار الـرجـال ، والألسنـة الفـاحشـة التى سبتهم وهـددتهم بـالاعتـداء على اعراضهم ، وأجبرتهم ـ بالتعطيش والتجويع ـ على أن يشـربوا بـولهم أو يأكلوا فضلاتهم .

ذلك بعض مما حـدث ـ ويحدث الآن ـ لمصـريين ، وليس ثمة مـا

يدعو إلى الظن أنه لن يحدث غداً ، ذلك أن بعضاً ممن ارتكبوا جرائم التعذيب فى الماضى ، ما زالوا فى مناصبهم ، يترقون بسبب حسن أدائهم لواجبهم !! ويثرثرون أحياناً بالحديث عن أمن الوطن وعن سيادة القانون وعن حماية الحرية ، ويتخرج على أيديهم جلادون صغار يلغون فى دمنا ، ويتلذذون بتعذيبنا ، ثم يعودون إلى منازلهم ليقبلوا زوجاتهم وأطفالهم . .

والغريب أن ملف التعذيب ، قد فتح مرتين ، الأولى عقب نكسة ١٩٦٧، والثانية عقب حركة ١٥ مايو ، وقيل فى كل مرة ، أن بلاغات المواطنين عما تعرضوا له من تعذيب سوف يكون محل تحقيق قضائى ، وانشىء مكتب خاص تابع للنائب العام مباشرة ، لتلقى البلاغات ، وبعد أن ادى المكتب دوره الدعائى والإعلامى ، اغلق بالضبة والمفتاح ، وتتالت قرارات حفظ البلاغات ، وانفض المولد بعد تقديم عدد محدود من الجلادين إلى القضاء ، وبعد حادث المنصة ، بل وحتى قبنه ، عاد الجلادون لممارسة نوازعهم المرضية ، وتحولت سجون ليمان طره والاستقبال والقلعة والمرج ، إلى سلخانات بشرية ، يضرب الناس فيها صباح مساء ، ويعلقون على أبواب الزنازين ، ويهانون ويذلون ، تحت أسماع وأبصار جميع السلطات القضائية والتنفيذية والقوى السياسية فى مصر .

إن أحداً فى هذا الوطن ، لا يستطيع أن يدعى أن واقعة واحدة من وقائع التعذيب التى حدثت طوال السنوات الثلاثين التى انقضت لم تصل إلى علمه ، وإذا كان هناك من يتوهمون أن النشر عن هذه الوقائع ، يضيف جديداً إلى « العلم العام » بها ، فمعنى ذلك أنهم لا يسمعون ما

يردده الناس فى البيوت وفى الشوارع والمنتديات وعلى المصاطب وفى الأجران وقد آن الأوان لنواجه الحقيقة بكل قسوتها ، إذا أردنا حقاً أن نوقف هذا التوالد السرطانى للعنف ، وأن نكسر حلقته الجهنمية ، وأن نكفل تطوراً ديمقراطياً حقيقياً لهذا الوطن ، شرطه الرئيسى أن نعترف بحق كل مواطن فى أن يجتهد فى شؤون وطنه ، وأن يكون الحوار الفكرى هو الأسلوب المعتمد من الجميع ، فحين تحاور الدولة فريقاً من مواطنيها بالسياط والشوم ، تدفع بعضاً منهم للمشاركة فى الحوار بالخناجر والقنابل !

والخطوة الأولى فى هذا الطريق الشاق ، هى أن تخضع وقائع التعذيب التى تعرض لها كل من اعتقل أو تم التحفظ عليه أو قبض عليه بأمر من النيابة منذ ٣ سبتمبر ١٩٨١ وإلى اليوم ، لتحقيق قضّائى حقيقى ، يتولاه مستشارون ينتدبون من الهيئات القضائية العليا ، يكون من حقهم أن يستعينوا بمن يختارون من أعضاء النيابة العامة ، على أن يعاونهم فى توقيع الكشف الطبى على ضحايا التعذيب ، أطباء من ذوى السمعة الحسنة، ليسوا موظفين فى مصلحة السجون ، ولا فى أى جهة حكومية أخرى . .

ولا يمكن أن يكفل جو صحى لهذا التحقيق ، والضباط المتهمون بالتعذيب ما زالوا فى مناصبهم ، بل أن بعضهم يشرف على محابس ضحاياهم ، ويديرها حتى الآن ، بينما ملك آخرون وقاحة الظهور فى قاعة المحكمة ، للتعرف على الضحايا باعتبارهم مجرمين ، وهو واقف يختال بما ارتكب من إجرام ، وكأن الاستشهاد على الضعفاء ومسلوبى الحرية ، من علامات الرجولة والفروسية ومن شروط ارتداء الزى العسكرى (!!).

إن التحقيق فى وقائع التعذيب مع بقاء المتهمين الرئيسيين فيه ، وهما العميد محسن السرساوى مأمور سجن الاستقبال والعقيد صفوت جمال الدين مأمور ليمان طره ، فى منصبيهما ، أمر لا يستقيم مع المنطق كما لا يستقيم معه ، بقاء غيرهم من ضباط السجون ومباحث أمن الدولة المنسوب إليهم تعذيب الضحايا فى ممارسة أعمالهم . . ومن مصلحة هؤلاء الضباط أنفسهم ، ومن مصلحة الحقيقة ، أن يمنحوا إجازات مفتوحة لحين انتهاء التحقيق ، ضماناً لحيدته وصوناً له من أى ضغوط ، فإذا ثبتت براءتهم عادوا إلى مناصبهم .

وليس من حق النيابة العامة أن تعتب علينا لأننا نقترح أن يقوم غيرها بذلك التحقيق ، ذلك أنها من بين الجهات التى نسب إليها المتهمون وقائع تتعلق بالعلم بالتعذيب ، والتستر عليه ، ومن مصلحتها أن تحقق جهة أخرى ذلك الادعاء ، وقد يبدو غريباً أن تكون ضربات السياط واضحة على ظهور المتهمين ، وغائبة عن محاضر المحققين ، فى حين أن من أوليات أى محضر تحقيق ، أن يناظر المحقق المتهم ، وأن يصفه ، وأن يثبت ما به من اصابات ، وأن يسأله عن سببها !

. . ثم إن من حقنا نعتب نحن على النائب العام ، قبل أن يعتب علينا ، وأن نقول له : إن هذه الجريدة سبق لها أن خاطبته علناً وعلى مشهد من الرأى العام ، وطلبت إليه أن ينفذ الواجب الذى فرضه القانون عليه ، فيقوم بالتفتيش على السجون العمومية ، ليتثبت بنفسه من أن المواطنين الذين أودعوا بها يعاملون وفقاً لما يقضى به القانون ، ولما ينص عليه الدستور ، ولدينا ما يحمل على الظن بأنه لم يفعل ، إذ لو كان قد زار السجون ، وتفقدها لتوقف كثير من الاثم والشر كان يجرى فيها

آنذاك ، وجرى فيها بعد ذاك . .

ثم إن « الأهالى » عادت فنشرت نص أربعة بلاغات ، تقدم بها المحامى والقاضى وعضو مجلس الشعب عادل عيد ، إليه تتضمن وقائع تعذيب ، وسألته عما اتخذ بشأنها من اجراءات فلم يتكرم علينا برد ، وتركنا لوزارة الداخلية ، تكذبنا ، بينما البلاغات لم تقدم إليها (!!) وما كان يجوز أن تقدم إليها وهى المتهمة فيها !

ليس هذا فقط ، بل أننا تلقينا ، بعد ما نشرناه من بلاغات ، بلاغات أخرى ، رأينا ـ لأسباب تتعلق بالملاءمة السياسية وتقديراً لبعض المراجع التى نحترمها ـ أن نؤجل نشرها بعض الوقت . فأحلناها إلى النائب العام بخطاب يحمل توقيع رئيس تحرير هذه الجريدة ، وطلبنا منه أن يحقق فيها ، وأن يخطرنا بنتيجة التحقيق ، لكنه لم يرد . . ولعله يكون قد حقق !!

إن ذلك كله ، يفتح مع ملف التعذيب ، ملف السجون المصرية ذاتها ، وهى مؤسسات نظامية ، ينظم القانون انشاءها وادارتها ، ولكن التجارب المرة ، عاماً بعد عام . وعهداً فى أثر عهد ، تؤكد أنها تفقد هذه الصفة النظامية أحياناً ، بل كثيراً ، وتتحول إلى مؤسسات يمارس فيها أبشع أنواع الإجرام ، وأحط أساليب التعذيب ، بحيث يتواضع ما ارتكبه المذنبون الذين حكم بوضعهم فيها ، أمام ما يرتكبه من أناط بهم القانون إدارتها .

والوسيلة الوحيدة لتحويل السجون إلى هيئات نظامية ، هو نقل تبعيتها من وزارة الداخلية ، ومن السلطة التنفيذية كلها ، إلى هيئة مستقلة ، تتشكل من رجال القضاء وعلماء النفس والتربية ورجال الدين ،

على أن تتبع شرطة السجون هذه الهيئة فتخضع لاشرافها وتفتيشها ، وتتلقى منها أوامرها وعلاواتها وترقياتها ، حتى لا يضطر ذوو الضمائر من ضباط وجنود السجون ـ وما أكثرهم ـ فى ظروف ضآلة مرتباتهم وتدهور أحوالهم المعيشية ـ إلى تنفيذ أوامر التعذيب ، لكى يحصلوا على ما كان اللواء حمزة البسيونى ـ لا رحمه الله ـ يسميه بعلاوة الأجرام ، وهى أجور اضافية تمنح للذين كانوا يعذبون البشر !

ويبقى ذلك كله رهيناً بيقظة الضمير العام ، ففى هذا الوطن عشرات الآلاف يحملون على لحمهم الحى آثار السياط والعذاب الذى لا تمحوه الأيام ، ربما لأن الذين لم يعذبوا ، لم يغضبوا لما حاق بالآخرين من عذاب ، وكلما نظرت إلى عيون الأطفال البريئة، وتخيلت أنهم سيكبرون يوماً ، ويقادون إلى السلخانات التى لم يغلقها أحد ، شعرت أننى مجرم ومتواطىء ، وأن من حولى كذلك . .

فليرفع كل صاحب ضمير فى هذا الوطن صوته ضد الجلادين . . وليكن كما جرى فى قضية « الجهاد » ، آخر عهد مصر بهذه الفظائع ، وليلق كل من اشترك فى تعذيب البشر ، الجزاء الرادع الذى يستحقه ، إذا أردتم أن تكسروا دائرة العنف الجهنمية ، فالنتيجة المنطقية المتوقعة ، لما جرى فى سلخانات الاستقبال وطره والمرج والقلعة ، من حوار اعتركت فيه الدولة بالعصى والشوم والكرابيج ، هى أن يخرج للأسف بعض هؤلاء المتهمين ، أو غيرهم ، اليوم ، أو بعد سنوات ، لكى يتحاوروا مع الدولة بالقنابل والخناجر !

(*) « الأهالى » ـ العدد ٦٢ فى ١٥ ديسمبر ١٩٨٢ .

ياست الكل
ياطاهرة..

صعبة هى الحياة فى بلد محتل !

يأتى النهار بعد الليل . . ويجىء الليـل بعد النهـار ، يتنفس الناس وجودهم قهراً . . يحلمـون بفجر غـاب آذانه ، وينتـظرون شمس يوم لم تطلع بعد ، على عالم غير العالم . . تكون الحياة فيه أقل عسراً . .

ويأتى عام جديد : ١٩١٨ .

لم يفـرح أحد . بلهجـة حزينـة إستقبلت الصحف مطلع العـام ، قالت « المقطم » .

ـ ما كان البشر ليظنوا أن الحرب الضروس التى نشبت سنة ١٩١٤ تطلع عليها شمس سنة خامسـة ، والمدافـع تقصف ، ومعاول الخراب والدمار تعمل فى بلدان الحضارة ، وما كان أشد الناس تشاؤماً ليحسب أن سنة ١٩١٨ تهل ، ورايات الحرب مرفوعة على البر والبحر فى أوربـا وأمريكا وآسيا وأفريقيا » !

حرب أوربية لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، لذلك تصعب الحياة على الفقراء ، وشتاء العام الجديد شديدة البرودة ، أفردت « الأهرام » صفحتها الأولى للحديث عن الجو قالت « إن برد مصر الحالى قادم من أوربا ككثير مما يأتينا منها ، وقد قابل معظم الناس البرد بالتأفف والتبرم . . فالبيوت فى مصر روعى فى بنائها طول فصل الحر وشدته فى القطر ، فهى عالية السقوف ، كبيرة الغرف ، وقل أن يكون فيها مواقد لإيقاد النار » !

أما شقة «عبد الناصر افندى حسين » فكانت فوق سطح منزل فقير بباكوس فى الاسكندرية ، فما أبشع أن تستنشق هواء الشتاء البارد ، فى شقة صغيرة ، تصبح فى الليل كالثلاجة . وتتساءل مع الأهرام عن بيوت لوردات الانجليز المزودة بالمواقد . ولا حديث للصحف إلاّ عن الحرب ، حتى الإعلانات . السلطة العسكرية البريطانية ، أعلنت صباح اليوم ـ ١٥ يناير ١٩١٨ ـ عن حاجتها لخمسين شاباً مصرياً لتدريبهم ليكونوا سواقين للسيارات الكبيرة ، هؤلاء هم « فيلق العمال » ، مهمتهم أن يخدموا فى الخطوط الخلفية لجيوش الحلفاء . تجمعهم سلطة الاحتلال سخرة أو بتطوع شبه قسرى ، ترسلهم إلى مختلف جبهات القتال : فى شبه جزيرة سيناء والعراق وفلسطين والدردنيل ، يموتون هناك بالبرد والصقيع والرصاصات الطائشة ، وتطمر الثلوج جثث مليون منهم . . لا يعرف لهم أحد ـ حتى اليوم ـ قبراً .

عسيرة هى الحياة فى بلد محتل ، لذلك يتبدد مرتب «عبد الناصر افندى حسين»، معاون مكتب بريد الاسكندرية ، فى سوق اسعارها نار ، ستلد زوجته فى منتصف هذا الشهر ، فكيف يدبر أموره والصحف تقول أن اردب الفول قد ارتفع سعره من ٧٠ قرشاً إلى ٣٦٠ ، واختفى القمح

من الأسواق ، وأشاع التجار أن المخزون منه يكفى فحسب ثلاثة شهور ، فازدادت الأسعار جنوناً .

كالعادة كسب التجار وجاع الفقراء ، فأضحك حتى تدمع عيناك لأن اسعار الخضراوات قد ارتفعت فى بلد « الملوخية » . قالت المقطم : إن غلاء الخضر والبقول فى هذه الأيام التى غلا فيها كل شىء ، شديد الوطأة على الطبقات الفقيرة ، وبعض الطبقات المتوسطة التى تعتمد كثيراً فى طعامها على الخضر بعد ما كاد الحصول على اللحم والأدهان ، والبيض والدجاج يصير متعذراً عليها » !

تتحدث « الأهرام » عن مساكن بلا دفايات كبيوت لوردات الانجليز ، دون أن تتنبه للمفارقة المضحكة ، فهى نفسها التى نشرت أنباء اختفاء الجاز من مصر كلها ، ووقوف الناس فى الطوابير بحثاً عنه ، وأيدت اقتراح « المقطم » بوضع نظام لتوزيعه بالبطاقة ، فكيف يواجه معاون بريد الاسكندرية نفقات استقبال طفل جديد فى بلد لا دجاج فيها ولا لحم ولا جاز ، وقبل أيام اجتمع مجلس النظار برئاسة رشدى باشا ، ليبحث أزمة الجاز ، وانتهى إلى قرار برفع سعر اللتر إلى ١٧ مليماً ، أما سيد درويش ، فكان وقتها يلحن طقطوقته الشهيرة :

استعجبوا يا أفندية . .
لتر الجاز بروبية . .
ما أكثر ما يدعو لعجب الأفندية فى بلد محتل . .

فهل يقدر للطفل القادم أن يعيش فى بلد يتحالف عليه الحرب والغلاء والقهر ، بل والوباء أيضاً . فى بداية طوبة تحدثت الصحف عن عودة الكوليرا ، ظهرت ثلاث إصابات فى يناير الذى سيولد جمال

عبد الناصر فى اليوم المتمم لمنتصفه : جاء الميكروب مع الذين بقوا أحياء من فيلق العمال ، هذا هو مصير شعوب المستعمرات ، فى عالم يتصارع الأقوياء فيه على توزيع الأسواق ، من لم يمت مطموراً فى الثلج ، يعود بميكروبات الكوليرا ، ليموت فى الوطن ، ويموت معهم الذين لم تقسرهم السلطة على التطوع لخدمة قضية الحلفاء ، هذا هو قانون عالم يحكمه المستعمرون : يحاربون بجثثنا وتموت حتى دوابنا . شكى فلاح من « سنورس ـ فيوم» لأن الطاعون البقرى يفتك بالماشية ، وهاجم عمد الأرياف الذين لا يبلغون عن الإصابات فى الماشية ، مما يزيد من خطر الوباء » .

رياح طوبة الباردة تهب . . ينكمش الناس فى جلودهم . . فكيف حال الذين نفتهم السلطة العسكرية البريطانية إلى معتقلات الطور والجماميز وفى سجن القلعة ، وإلى متى تستمر الحرب ، وتستمر معها الأحكام العرفية ، وهل يستمر هذا السياج الرهيب من الصمت الذى منع كل معارضة إلى الأبد ؟!. تبدو الصحف كلها طبعة من صحف انجلترا : كلها دعاية للحلفاء الذين ينتصرون برغم أنف الألمان . . لا كلمة واحدة عن قانون التجمهر الذى يعتبر تجمع أكثر من خمسة أفراد خروجاً على القانون يبيح للسلطة العسكرية تفريقهم بالرصاص . الموت يحيط بنا من كل جانب . والذى ينجو من منجلة تحصده المعتقلات ، لذلك استضافت المعتقلات فى طرة والعباسية والجماميز اعضاء الحزب الوطنى ـ الوطنى (أى حزب مصطفى كامل ومحمد فريد وليس أى حزب آخر يحمل نفس اللافتة وحق التسمية لشيخ المعارضين فتحى رضوان) . للسبب نفسه أغلق « الحزب الوطنى ـ الوطنى » صحفه ، وغابت شمس آخرها حتى لا تلوث صفحاتها بنشر خبر اعلان الحماية البريطانية على

مصر . وحتى حزب الأمة ـ التجمع السياسى لكبار ملاك الأرض ـ رافع شعار أن الاحتلال أتت به ظروف سياسية معينة ، وتذهب به ظروف أخرى ، الداعى لسياسة مسالمة الاحتلال لا معاندته ، أغلق هو الآخر صحيفته « الجريدة » ، واعتكف رئيس تحريرها أحمد لطفى السيد فى بلدته قلين ، يتأمل وطناً لم يعد فيه مكان للمتشددين ، أو حتى للمسالمين . .

هناك مكان فقط فى الصحف للذين يعيشون على هامش الحياة . . فى بلد غير البلد يعيش الأمراء والأعيان والذوات ، فليسلي معاون مكتب بريد الاسكندرية نفسه ، ولينسى همومه ، فقد سافر الأمير يوسف كمال إلى ضياعه فى الصعيد ليمضى بعض الوقت ، هارباً من برد طوبة فى قصوره المزودة بالمدافىء الانجليزية ، أما جلالة السلطان أحمد فؤاد الأول ، فقد « شرف سراى عابدين العامرة ، فرأس مجلس الوزراء . . ثم شرف حفل سباق الخيل » . كذلك حصل وزير المعارف عدلى يكن باشا على النيشان الفخرى للقديسين ميخائيل وجورج من رتبة فارس . . وبذلك أصبح من حقه أن يلقب بالسير عدلى يكن ، ونوهت الصحف بأن هذا النيشان لا يمنح إلاَّ للذين يؤدون خدمات جليلة للامبراطورية ولجلالة الامبراطور .

تنشر الصحف أخبار جلالة الامبراطور تحت عنوان « جلالة الملك » دون أن تذكر : ملك من ؟!، فمصر محمية بريطانية ، وجورج الخامس ملكها أيضاً ، وصباح هذا اليوم سيولد للمواطن عبد الناصر افندى حسين ابن سيسميه جمال ، يزيد عدد الرعايا الذين يستظلون بعَدل . . الامبراطور وينعمون بالمساواة في ظل عرشه المجيد .

في مساء اليوم نفسه ، سهر الذوات فى دار الأوبرا السلطانية ، وكانت تقدم للمرة الثامنة والخمسين رواية كارمن من تأليف فرح انطون ، افتتحت الحفلة السيدة منيرة المهدية ، بانشاد مارش عظمة السلطان فؤاد الأول ، الذى تزدهر الفنون فى عهده الميمون . قبلها بأسبوع نفدت جميع البنوارات والألواج الأولى والثانية ، فهل تتحمل ماهية معاون مكتب بريد الاسكندرية ثمن تذكرة البنوار الحريمى المتقدم وهى لا تزيد عن ٥٠٠ قرش ، أم يكفيه لوج أول رجالى بـ ٤٠٠ قرش فقط ، خاصة أن زوجته قد وضعت طفلها فى الصباح ، ولا تستطيع أن تشاهد العرض . . وحتى لو سمحت الظروف بأن يسافر إلى العاصمة ، فلن يجد نقوداً باقية ، ليشاهد الأشرطة التى تعرضها سينما اكسلسيور ، بقرب محطة المترو ، عن حوادث الحرب ، ووداع الحب ، والروايات الكوميدى المدهشة التى بدأت عرضها فى المساء ذاته. ذلك أن الضيف الجديد كان قد قضى، لا على ماهية يناير فقط ، بل وفبراير أيضاً . ولم لا ؟ أليس لتر الجاز بروبية ؟!

إلى أين يهرب الفقراء من أمثاله ؟!

أيهاجرون إلى امريكا بلد العجائب ؟!. قالت المقطم فى إعلان نشر اليوم أن المادة ٣ من قانون الهجرة الأمريكى تمنع دخول المعتوهين والمختلين والشحاذين والمعدمين والمتشردين والذين يعتقدون بوجوب قلب الحكومات ، أو يعارضون القوانين أو يطالبون بتأميم الممتلكات وتمنع كذلك دخول سكان بلدان قارة آسيا الواقعة غربى خط الطول ١١٠ شرق جرينتش . .

ممنوع دخول الطلاب والضعفاء وصفر الوجوه والمطالبون بالعدل . .

فهل يهاجر الفقراء إلى روسيا . . ولكن الصحف تهاجمها بشدة فقد استولى البلشفيك على السلطة وانسحبوا من الحرب ضد المانيا ، وأعلنوا أن لا ناقة لهم فيها ولا جمل . . لذلك غضبت « المقطم » صحيفة دار الحماية البريطانية فى مصر ـ وأدانت « نكث روسيا لعهودها مع الحلفاء » وقالت أن البلشفيك جهلة « مصممون على التمسك بنظرياتهم ، ومنها اطلاق الحرية للشعوب ذات القوميات لكى تختار لنفسها الحكم الذى تريده حتى أنهم سمحوا بتجزئة الامبراطورية الروسية ، وتنازلوا عن مستعمراتهم ، ووافقوا الفنلنديين على انشاء جمهورية مستقلة ، لأنهم من جنس غير الجنس الروسى » ؟!

فأين المفر . . وأبواب أمريكا قد اغلقت فى وجه المطالبين بالعدل ، والمقطم قد أغلقت باب روسيا لأنها تتنازل عن مستعمراتها .

هل يذهب إلى القدس ؟!

من القدس ، وصل الجنرال اللنبى ـ القائد العام لحملة الشام، قاهر الألمان والعثمانيين ـ وفى محطة العاصمة استقبله جميع عظماء مصر وكبرائها ، لذلك شغلت قائمة أسمائهم والقابهم ووظائفهم عموداً كاملاً من صحف الصباح ، وبعد الاستقبال الحافل ، تناول القائد المظفر ، ومن معه ، الغذاء على المائدة السلطانية العامرة ـ بعكس مائدة عبد الناصر افندى حسين ـ بالدجاج واللحوم وحتى الخضروات التى ارتفعت أسعارها ، ولم تشك مطابخ سراى عابدين العامرة من أزمة الجاز !

فى مانشستر بإنجلترا ، خطب السير « مارك سيكس » ـ وزير الخارجية البريطانية ـ فى اجتماع عقده صهاينة انجلترا لشكر الحكومة الانجليزية ، التى منحتهم ـ قبل ستة أشهر وعد بلفور ـ فقال :

إن الوعد الذى منحته لكم حكومة صاحب الجلالة ، بانشاء وطن

قومى لليهود فى فلسطين ، ينبغى ألا يمس حقوق العرب ، فهم يطلبون اليوم بحقوقهم القومية وهم من دم واحد ولسان واحد ، وعددهم ٧ ملايين ، وهم كثيرو النسل ولهم فى بلادهم تربة خصبة وفيها بترول وعقول ، فإذا لم تضعوهم في اعتباركم فسوف يكون ذلك فاتحة نزاع شديد لم ير العالم مثيلاً !

لم تستطيع أنباء انتصارات الجنرال اللنبى فى الجبهة الشامية أن تغطى على أخبار المجاعة التى انتشرت فى ربوع لبنان وسوريا وفلسطين ، وكان جمال عبد الناصر قد ولد فى صباح اليوم الذى أقامت فيه بعض « العقيلات المحترمات » حفلة خيرية لاغاثة المهاجرين من أهالى سوريا ولبنان ، ممن وفدوا إلى مصر هرباً من أهوال المجاعة وفظائع الحرب ، وفى الحفل انشد عدد من كرائم الآنسات نشيداً يقول :

لا تهنا مصر بنعمتها
والشام تحف بها النقم
إذا ما الأرز شكا سقماً
جزعت مصر وبكى الهرم
ستزول الأرز وان عبست
ويعود الدهر فيبتسم .

وسط صعوبة الحياة فى وطن محتل ، كان كثيرون يختلفون فى قلب الوطن الرحب .

كان سيد درويش قد ترك كوم الدكة بالاسكندرية واستقر فى القاهرة ، وكان حضرة الدكتور طه حسين الطالب بإرسالية الجامعة المصرية فى باريس يستعد لامتحان الدكتوراه فى العلوم الاجتماعية ، أما

سيد درويش ، فلم يمر وقت طويل ، إلاّ وقد لحن نشيداً يقول مطلعه :

قوم يا مصرى . .
مصر أمك بتناديك
خد بناصرى
ناصرى دين واجب عليك !

وكـان سعد زغلول يعـانى فراغ سنـوات الحرب ، وينتـظر أن تنتهى لينفض التراب عن نفسه ، ليذهب ـ بعد عشرة أشهر فقط من ميلاد جمال عبدالناصر ـ إلى ممثل انجلترا فى مصر ليطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وكان آلاف من طلاب المدارس وافندية المدن والفلاحين الفقراء يعيشون شهود عمرهم الأخيرة ، إذ كان مقدراً لهم أن يواجهوا ـ بلحمهم الحى ـ جيوش بريطانيا التى هزمت المانيا ودول المركز ، فيهزمـونها فى ثورة ١٩١٩ ، ويستشهدون وهم يهتفون باسم الوطن !

فيما يلى ذلك من سنوات ، سيصنع المصريون من ابن معاون مكتب بريد الاسكندرية الفقير ، الذى ولد فى ذلك الصباح البارد من شهر طوبة بـطلاً ، سيلهمونـه وهو طفـل ، ثم وهو شـاب ، بكل طمـوحهم للعـدل وللحـرية ولـلأمن وللدفـء سيواجـه بهم ومعهم ، قوى عـاتية ، فينتصـر عليها ، ستصب فى شراعه المقدام ريـاح أمه ، لم يحن القهـر ـ يومـاً ـ قـامتها ولم يستذل الطغيـان نفسها الأبيـة ، تمر بهـا الأحداث كَلْمى . . هزيمة . . ووجهها وضاء . . وثغرها باسم !

فى صباح يوم ميلاده . . ابتسموا . من يدرى ، ربما يـولد اليـوم ، أو غداً ، إن لم يكن قد ولد فعلاً ، فى حارة ما ، من شارع ما ، طفل آخر ، تلهمه الأمة ، وتتدافع فى شراعـه ، تصنـع بطولتـه ، تمنحه القـدرة على

تحـدى القهر والهـزيمة وتضـاؤل الأحلام واستـرداد مـا ضـاع ، ومـا قـد يضيع . .

غنوا اليوم للأم التى ولدته
سلامتك يا أمة يا مهرة . .
يا حبالة . . يا ولاده
يا ست الكل يا طاهرة . .
سلامتك من آلام الحيض
وم الحرمان وم القهرة
سلامة نهدك المرضع
سلامة بطنك الخضرة ![1]

(*) الأهالى ـ العدد ٦٦ ـ ١٢ يناير ١٩٨٣ .
(١) من قصيدة للشاعر أحمد فؤاد نجم .

تراجيديا الممثل صلاح بركات

عرفت الممثل صلاح بركات منذ أكثر من عشر سنوات ، كنت أيامها غارقاً لأذنى فى قراءة ملفات قضية اغتيال المرحوم « **حسن البنا** » ـ المرشد العام الأول لجماعة الأخوان المسلمين ـ فعثرت على « صلاح بركات » تائهاً بين أوراق الملف التى تزيد على خمسة آلاف صفحة ، مشرداً بين وقائع المؤامرة المثيرة التى تكشف أوراق التحقيق أسرارها وخباياها . .

ومع أن علاقته بقضية اغتيال البنا كانت واهية ، بحيث تغرى القارىء المشوق لتتبع وقائع القضية ، بالانصراف عن هذا الممثل الفلسطينى الجوال ، الذى اقتحم عالمها دون اذن . إلاّ أن الدور القصير الذى مثله « **صلاح بركات** » فرض نفسه على ، وحفر اسمه فى ذاكرتى ، كذلك استقرت ملامحه : وجهه الأسمر النحيل ، وشعره الأسود الطويل الذى يبدو من طربوشه القديم الناحل المترب ، وقامته المتوسطة طولاً وضخامة ، تلتف بجلبات من الزفير الأبيض به اقلام صفراء ، وفوقها

صيديرية من الصوف كحلية اللون وبدون أكمام .

ولا أدرى ـ حتى اليوم ـ سبب هذا الحضور القوى للممثل ، الذى لم يكن يوماً فناناً مشهوراً أو نجماً لامعاً ، ولعله لم يمثل فى حياته سوى دور واحد ، غادر بعدها المسرح ، وأحاط الغموض مصيره ، ربما لأن قصته تنوى على ذلك اللحن الفاجع الذى نسميه بمأساة فلسطين وربما لأنه اختار واحدة من لحظات « الذروة » ليتقدم اثناءها إلى المسرح ، حين بدا أن البحث عن قتلة الشيخ « حسن البنا » قد انتهى إلى طريق مسدود ، وربما لأنه وهو الممثل الجوال الفقير والجائع والتعيس ، استطاع بالدور القصير الذى مثله ، أن يكشف الممثلين الكبار على مسرح الأمة ، وفى تياترو المعمورة ، وأن يقدم اداء طبيعياً لمعان معقدة كالوطن حين يضيع ، والشعب حين يصبح لاجئين ، ولم يكن يحشو فمه بطعام أو بأفكار : كان مجرد تعاسة تسير على قدمين !

. . . .

وكان اغتيال « الشيخ حسن البنا » مشهداً من مشاهد عقد الدم الذى عاشته الأمة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها حين انتفضت تحاول أن تحقق استقلالها وتحررها ووحدتها ، ودفعت مهانة الحياة فى ظل الاحتلال والقهر ، ابناءها للعب بالسلاح ، فانطلق الرصاص غزيراً ، وفى سبع سنوات فقط ـ بين نهاية الحرب وأوائل الخمسينات ـ اغتيل فى الشرق الأوسط وفى المنطقة العربية ١٢ رجلاً كبيراً فيهم ملكان ورئيس جمهورية وخمسة رؤساء وزارات ورئيس حزب وقائد عام ورئيس محكمة ووزير سابق .

وحين بدا أن المؤامرة على فلسطين قد اكتملت فصولاً ، انتهت بسرعة مرحلة مواجهة العدو الخارجى ، وبعد هزيمة حرب ١٩٤٨، عاد

الرصاص من الحدود ، لينطلق فى صدور الذين يحكمـون ويتواطؤون . وباسم فلسطين جمع الأخوان المسلمون السلاح وخـزنوه ، تحت سمـع الحكومة وبصرها ، وبرغم أنف قوانينها ولوائحها ، وحين اكتشفوا الخيانة فى جبهة القتال مع العدو ، عادوا ليطلقوا رصاصهم فى الداخل ، ليسمع الممثلون الكبار على مسرح الأمة خطى الزمان القادم . .

وهكـذا انتهت الصـداقـة القـديمـة بين « الأخـوان المسلمين » و « السعـديين » إلى صدامـات عنيفة تقـع كل يـوم ، وحين ضاق رئيس الوزارة « النقراشى باشا » بالأمر استغل الأحكام العرفية التى كانت معلنة بمناسبة حرب فلسطين ، وأصـدر أمراً عسكـرياً بحـل الأخوان ومصـادرة أمـوالهم وصحفهم ، وفتحت المعتقلات أفـواهها لتضم كبـار رجالهم ، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع دفـع الرجـل ثمن قراره ، فـأطلق عليه طـالب ينتمى للإخوان رصاصتين فى فناء وزارة الداخلية فسقط صريعاً أمام كبار وصغار ضباط البوليس .

ومـع أن الشبـاب السعـدى ، قـد سـار فى جنـازتـه يهتف : رأس النقراشى برأس البنا ، إلاَّ أن الشيخ ظـل يوالى مسـاعيه للمفـاوضة مـع « إبـراهيم عبد الهـادى » خليفة النقـراشى فى رئـاسـة الحـزب والـوزارة للوصول إلى حل للأزمة بين الحكومة والأخوان ، قد يتيح لجماعته بعضاً من الحرية ، وكانت تلك المساعى هى الطعم الذى اصطاده به من كانوا يتآمرون على حياته . .

وفى مسـاء يوم السبت ١٢ فبـراير ١٩٤٩ ، استـدعى البنـا إلى مبنى جمعية الشبان المسلمين ، ليلتقى بأحد الوسطاء فيسمع منه ـ كما قيل له ـ أنباء طيبة ، وفى الثامنة والربع خرج من الجمعية ، وما أن دلف مع صهره

إلى إحدى سيارات التاكسى ، حتى برز من ظلام تلك الليلة الشاتية رجلان ، أولهما أسمر ومتوسط الطول ، ويلف رقبته بشملة ويرتدى معطفاً أسود على جلباب ، والثانى رفيع قمحى اللون ، يرتدى جلباباً أبيض ويلف رأسه بشملة بيضاء ، فانقضا على السيارة وفتحا بابيها وانهالا على الراكبين بالرصاص ، وبسرعة مذهلة عبرا الطريق إلى الجهة الأخرى ، حيث كانت فى انتظارهما سيارة اختفت بهما عن الأعين .

وفى الليلة ذاتها بدأت النيابة التحقيق ، فاستمعت لشهور الحادث ومن كانوا بدار الشبان المسلمين ساعة وقوعه ، فوصفوا السيارة التى هرب فيها الجناة ، وقال بعضهم أن « **محمد الليثى افندى**» رئيس القسم الرياضى بالجمعية ، قد التقط رقمها . . ووجد البوليس فى الشارع أمام الجمعية حافظة تقود بها رخصة لطاه يسكن بولاق ، فقبض على صاحبها ، الذى قال أنه كان عائداً من عمله فى المساء ، ويضع البالطو على كتفه ، فوقعت الحافظة منه دون أن يشعر . . ولم تجد النيابة داعياً لتكذيب أقواله ، إذ لم يبد أن لديه أى دافع لقتل المرشد العام للأخوان المسلمين . .

وجاءت أقوال « **الليثى أفندى** » الأولى فى النيابة ، لتقطع كل الخيوط ، ويلف الظلام كل شىء ، فقد ذكر أنه لم ير رقم السيارة ، ولكن أحد المارة هو الذى رآها وذكرها له ، وقال أنه كتبها على ورقة ، وأعطاها لأحد ضباط الشرطة لا يعرف اسمه وأضاف أنه لا يذكر من الرقم إلَّا أنه كان مكوناً من أرقام من بينها ٧ و ٩ . .

لكن رقم السيارة كان قد تسرب إلى جريدة « المصرى » ، فنشرته فى صفحتها الأولى التى صودرت بعد أن تسربت ستة آلاف نسخة منها

إلى الأسواق ، وصدرت الطبعة الثانية وهى تحمل الخبر دون تفاصيل أو صور أو عناوين بارزة أو رقم السيارة كتعليمات الرقيب لكل الصحف . أما جنازة الشيخ فقد شيعت فى الصباح الباكر تحت حراسة مشددة من الشرطة ، ومنع أى انسان من المشاركة فيها .

وهكذا بدا واضحاً أن الحكومة غير متحمسة للبحث عن قتلة الشيخ ، وشغل ضباط القسم السياسى أنفسهم بالقول بأن الجناة هم على الأرجح بعض أتباع الرجل ، ممن خافوا أن تنتهى الوساطة بينه وبين الحكومة ، بمصالحة يكونون هم ضحاياها فيسلمهم إليها لتقتص منهم . . وكادت القضية تموت ، إلى أن تقدم الأستاذ « **فتحى رضوان** » **المحامى** ، ببلاغ للنيابة ، قال فيه أن «**محمد الليثى أفندى**»، قد أنبأه أنه كذب فى أقواله الأولى أمام النيابة ، وأن الحقيقة أنه هو الذى التقط رقم السيارة ، وأخطر به بعض زملائه فى الجمعية وذكره لأحد ضباط الشرطة ليلة الحادث . .

وقال « الليثى أفندى » أنه فوجىء بالبكباشى الجزار ـ رئيس القلم السياسى ـ يتصل به ، ويطلب منه عدم الادلاء بالرقم فى تحقيقات النيابة ، فلما أنبأه باستحالة ذلك لأنه ذكر واقعة التقاطه الرقم لآخرين ، طلب منه أن يغيره أو يذكر أرقامه على غير ترتيبها أو يجعله احتمالاً بين رقمين أو ثلاثة . .

وأضاف « **الليثى أفندى** » : أنه حاور « **البكباشى الجزار** » ، ولفت نظره لأنه هو الذى استدعى الشيخ من بيته للموعد الذى انتهى باغتياله وأنه يخشى أن يظن الأخوان المسلمين أنه تواطأ على قتل مرشدهم فينتقمون منه ، وأن الوسيلة الوحيدة لتوقى ذلك الخطر ، هو أن يكشف القتلة

الحقيقيين ، لكن الجزار حذره وهدده ونبهه إلى مغبة ذكر الرقم الحقيقى ، فخضع له ولم يذكره فى أقواله الأولى فى النيابة ، لكنه أعاد تقدير الأمر ، فقرر أن يدلى بالحقيقة ، مؤكداً أن الجناة قد هربوا فى سيارة سوداء تحمل رقم ٩٩٧٩ . وحين أدلى الليثى بأقواله فى النيابة ، أيد ما سبق وذكره لفتحى رضوان ، وأضاف أنه فهم من الجزار أن الرقم لسيارة تابعة لوزارة الداخلية !

وأنكر البكباشى الجزار كل ذلك ، وقال أن الليثى كان مرشداً للمباحث يعمل معه ، وأنه طرده من العمل لعدم كفاءته ، فأراد أن يبتزه ، فاتصل به تليفونياً ، وأخطره بحادث قتل الشيخ ، وهدده إذا لم يعده إلى العمل ، فسوف يبلغ النيابة برقم سيارة من سيارات الداخلية على سبيل النكاية به ، واختار رقم ٩٩٧٩ ، لأنه رقم سيارة وكيل وزارة الداخلية للأمن الجنائى الاميرلاى « محمود عبد المجيد » ، التى كان « الليثى » يراها فى فناء الوزارة كلما زار الجزار ليقدم له تقاريره عن نشاط الشبان المسلمين السياسيين !

وبثبات تقدم مدرس جامعى وأحد أعضاء هيئة تدريس كلية التجارة ، ليشهد بما يدعم أقوال الجزار ، فقد أكد أنه رأى السيارة والجناة يفرون بها ، والتقط الرقم وهو ٩٩٩٧ وليس ٩٩٧٩ كما قال « الليثى » ، فارتبكت الحقائق ، واستدعى المحقق كل السيارات التى تدخل فى تركيبها الأرقام الأربعة ، وثبت أن اثنتين منها متعطلتان منذ شهور ، وأن الثالثة لم تغادر المنصورة مع صاحبها ، أما الرابعة ، وهى سيارة الاميرلاى « عبد المجيد » فكانت واقفة على مقربة من الحادث ساعة وقوعه ، وقال صاحبها أنه كان يجلس مع عدد من الأعيان والذوات فى مقهى بميدان الأوبرا ، وسيارته على مرمى بصره ، لم تغادر مكانها ، واستشهد بمن

كانوا يجلسون معه ، فأيدوه بثبات يفوق ثبات المدرس الجامعى (!!)

وإلى هنا كان التحقيق قد انتهى أو كاد . . ولم يبق سوى اغلاق الملف .

وفجأة حدث حادث غريب !

فى مدينة شبين الكوم ، ضبط لاجىء فلسطينى اسمه « **صلاح أحمد بركات** » عمره ٢٧ سنة ، بتهمة سرقة ملابس من محل كواء مصرى كان يعمل لديه ويساعده فى دكانه . وبعد أن انتهى التحقيق فى قضية السرقة ، سأله المحقق ، ذلك السؤال التقليدى : هل لك سوابق ؟ فإذا بالرجل يعترف ببساطة أنه ارتكب جريمة قتل الشيخ حسن البنا . .

وقامت الدنيا ولم تقعد !

تحول صلاح بركات من لص متهم بتهمة تافهة ، إلى رجل يستحق عناية رئيس الحكومة والنائب العام ، وضباط الأمن السياسى ، وكل سلطات الدولة ، ولهذا انتقل التحقيق معه من مدينة شبين الكوم الصغيرة ، فى وسط الدلتا إلى القاهرة العاصمة ، ومن وكيل نيابتها إلى رئيس نيابة جنوب القاهرة وتحلق حوله كبار رجال النيابة يحاورونه ويداورونه ليعرفوا الحقيقة !

وفى كل مراحل التحقيق أصر صلاح بركات على أقواله : قال أنه فلسطينى ولد بيافا وكان مقيماً بها وأن اليهود هاجموا منزله وهدموه ، وقتلوا أمه وأباه واخوته ، ولم يبق من أسرته سواه ، فهرب من المدينة ومعه ٥٠٠ ليرة ، وسافر إلى القدس ومنها إلى عمان ثم إلى إربد بالأردن ، وهناك اشترى مسدساً ، وذهب إلى درعا ، وهرب من شرطتها إلى دمشق فبيروت ، وتسلل إلى ظهر باخرة يونانية نزل منها فى الاسكندرية وبقى بها

يومين ثم سافر إلى القاهرة وترصد للشيخ البنا الذى كان يعلم أنه يتردد على جمعية الشبان المسلمين .

وقال صلاح بركات : أنه استيقظ يوم الحادث فى الصباح ، واشترى زجاجة براندى رخيصة ماركة الميدالية ثمنها لا يزيد عن ٦٧ قرشاً ، وشربها فى اللوكاندة التى كان ينزل بها والتى رفض أن يذكر اسمها ، ثم نام وقام من النوم عند الغروب ، وحمل مسدسه ، وذهب إلى جمعية الشبان المسلمين ، حتى نزل الشيخ البنا ، فتقدم مسرعاً وأطلق عليه الرصاص ، ثم هرب إلى مقهى قريب جلس به بعض الوقت ، وقام منه ليستقل القطار إلى الاسكندرية !

وحاوره المحقق فى كل التفاصيل ، سأله عن الملابس التى كان يرتديها حين ارتكب الجريمة . فقال : أنا كنت البس جلابية وبالطو والجلابية بيضاء من القطن ، والبالطو اسود ، وكان على رأسى طربوش وحول عنقى تلفيحة حرير أبيض كنت شاريها من سوريا .

وسأله أين كانت تتجه السيارة التى استقلها « الشيخ البنا » ، فقال : ناحية المحطة . . . سأله عن عدد الرصاصات التى أطلقها ، فذكر الرقم الصحيح لعدد ما أطلق بالفعل من رصاص ، وسأله عن سبب ارتكابه للجريمة ، فقال إنه كان ممثلاً متجولاً فى إحدى الفرق المسرحية فى يافا ، ثم انضم لفرع الأخوان المسلمين بالمدينة ، وأنشأ لهم فرقة تمثيلية ليشبع رغبته فى التمثيل ، وأنه نقم على الشيخ سياسته ، فقرر قتله ، وجمع معلومات عن تحركاته ونفذ جريمته !

دهش الممثلون الكبار الذين كانوا يملأون المسرح حركة وحيوية ، ويلبسون أزياء الوزراء ، ويتباهون بنياشين وعلامات حفظة الأمن فركوا

أعينهم ذهولاً وهم يرون ذلك الممثل المغمور يقتحم خشبة المسرح ليؤدى دوره الوحيد والمجيد : دور المعترف المحترف ، حاوره المحقق وداوره ساعات طويلة ، فلم يتلجلج له لسان ، ولم ترتجف على شفتيه كلمة ، ولم تتناقض حقيقة قالها مع الثابت فى الأوراق ، فقد كان يحفظ كل التفاصيل : وقت الجريمة ومكانها وملابس القاتل واتجاه السيارة وعدد الرصاصات . وكان أيضاً غامضاً كما ينبغى لقاتل سياسى يحرص على اخفاء اسماء شركائه ، ويخفى بعض التفاصيل غير المهمة ، موحياً بأنه لا يريد أن يذكرها . . فيزيد فضول المحقق ، ويواصل محاصرته ليحصل منه على ما لم يعترف به ، بعد أن حل لغز مقتل حسن البنا ، وعثرت « العدالة » على قاتله !

شغلت النيابة نفسها بسماع أقوال الذين التقوا بصلاح بركات فى القاهرة والاسكندرية وشبين الكوم ، وامتلأت صفحات التحقيق بقصص لا تضيف جديداً ، وحين اقترب دور « صلاح بركات » على الانتهاء وان له أن يغادر المسرح ، التزم الصمت التام ، وفى جلسة التحقيق الرابعة ، أشار إلى زوره بما يفهم منه أنه عاجز عن الكلام .

وفى اليوم التالى فجر مفاجأة لم تكن فى الحسبان ، إذ ما كاد وكيل النيابة يواصل استجوابه عن قتله لحسن البنا حتى قال :

ـ وحياة الله ما بعرف اللى بتحكى عنه شو بدى فيه !

وهكذا أنكر « **صلاح بركات** » كل الذى قاله قبل ذلك ، وروى للمحقق تفاصيل عن رحلته منذ طرد من يافا لتعتصر القلب ببساطتها وقسوتها : هذا عصر الخروج . . من يافا إلى القدس إلى بيروت إلى اريحا إلى الاسكندرية فالقاهرة فشبين الكوم ، ثم إلى السجن مع احلام

المقصلة . طوال الرحلة كان « صلاح » معذباً ومشرداً ووحيداً وضائعاً ومشهده الأخير . . كما وصفه المحقق ـ معذب هو الآخر ، طربوشه يتسع على رأسه بحيث يغطى جزءاً من أعلى أذنيه ، وشعره بارز من الطربوش » ، لذلك تبدو أقواله شاهدة على العصر كله . . قال :

ـ دول كتفونى وضربونى وأخذوا منى ٣٧٠ ليرة . . وهيو براسى الاصابات .

ـ من الذين ضربوك ؟

« والله ما اعرف . . البلد اللى كنت فيها . ضبشونى واخذوا الثياب بتوعى الجداد » .

من هم : الصهاينة ؟! أم الخونة ؟! أم الناس فى بيروت وفى أربد وفى عمان ، الصامتون على الخيانة المتواطئون على سلب الأوطان ؟ . . تلك اسئلة لم يجب عنها « صلاح بركات » !

قاسياً وميت القلب يبدو العصر . قال صلاح بركات : « اليهود مسكونى فى رمات غان بفلسطين . حبسونى . بعد كده تركونى » . أما فى يافا فقد هجم عليه البدو العرب « قتلوا أمى وأبى وأخى » لذلك يبدو « صلاح » حزيناً جداً .

سأله المحقق : وما سبب شربك زجاجة كاملة من الخمر صباح يوم الحادث ؟

قال : أنا كنت زعلان شويه !!

فعاد المحقق يسأله بذهول :

ـ ولماذا اتهمت نفسك بارتكاب جريمة لم ترتكبها ؟

فقال بهدوء كسير كأنه يعلن احتجاجه على بلاده العصر :

ـ لأنى كنت زهقان من حياتى . . وما فيش شغل . .

لا عمل ولا وطن ولا منزل ولا أسرة :

فى ذلك الوقت كان الممثلون الكبار ـ والأقل موهبة ـ يبحثون بلا حماس عن قتلة الشيخ البنا ، وهم يعلمون أن القاتل هو النظام الذى يبحث ، وأن العصابة التى أطلقت الرصاص كانت بقيادة وكيل وزارة الداخلية ، ـ وقد أدانه القضاء بعد الثورة بتهمة التخطيط لقتل البنا ـ .

كانت القسوة قد طبعت كل شىء بطابع دموى ، ولم يكن « صلاح بركات » سوى واحد من مواليد هذا الزمن الدموى العنيف ، سرق ملابس تافهة من دكان احد الكوائين ، وترك مكانها ملابسه ، لا لأنه يريد أن يسرق ، ولكن لأنه يريد أن يدخل السجن ليأكل ويتخلص من الحزن الممض الذى يملأ قلبه على أهله الذين ماتوا وداره التى هدمت ، ووطنه الذى ضاع .

كلما تذكرت صلاح بركات سألت نفسى حائراً :

لماذا اتهم نفسه بجريمة لم يرتكبها عقوبتها الاعدام؟ . هل أجبره القتلة الحقيقيون بالضرب « والتضبيش » على تحمل وزر جريمتهم ليفروا من العقاب . ولماذا اختاروه بالذات ؟ .

ألأنه فلسطينى بلا وطن ولا حكومة ولا أسرة ولا أمل ـ أم لأن الفلسطينى قد أصبح من يومها مشجب أخطاء من يحكمون ويخونون ويغتالون الأوطان ؟ !

ولو كان هذا هو ما حدث فلماذا قبل « صلاح بركات » أن يؤدى هذا الدور الذى كاد ينتهى به إلى المقصلة ؟ إن الرجل بالقطع لم يكن مجنوناً ، وقد قال الطبيب الذى فحصه أنه لم يكن منفعلاً أو مذهولاً وأن حديثه خال من أى هلوسة أو تخيلات ولم يجد نقصاً فى قوة انتباهه أو فى ذاكرته . . فلماذا تقدم الرجل لينافس الممثلين الكبار على مسرح الأمة

وفى تياترو المعمورة ؟ هل طاف بخاطره أنهم وزرنا الـذى نحمله ، وأن بقاءهم حيث هم هو الجريمة التى ارتكبها هو وارتكبناها ، بحيث نستحق أن نشنق لأننا سكتنا عليهم ، وتحملنا بقاءهم على المسرح ، فتقدم ليكفر عن جريمة الصمت العـام على الذين يقتلوننـا شعوباً ـ وأوطاناً ـ غيلة . . وغدراً . .

قد يكون ذلك كله قد حدث، وقد لا يكون شىء منه قد حدث، لكن الشىءالمؤكد ، أن صغار الممثلين الموهوبين ، قـادرون ـ فى كل زمـان ومكان ـ على كشف الذين يمثلون أعقد الأدوار ، فى مسرح الأمة ، وفى تياترو المعمورة .

فأين أنت الآن يا صديقى « صلاح بركات » ؟!!

(*) « الأهالى » فى ١٦ فبراير ١٩٨٣ .

هكذا تكلم صلاح بركات

فضلت أن أنشر النص الكامل للوثيقة التي اكتشفت بين سطورها « تراجيديا الممثل صلاح بركات » ، رغماً عن برودة الأسلوب الرسمي الديواني الذي صيغت به ، وبلادته ، وافتقاره للشاعرية التي تتناسب مع المأساة التي يصفها ، بل إن هذا الأسلوب الديواني البليد ذاته ، هو الذي شجعني على نشر النص كاملاً ، ففي بلادته ، وحياده ، وبيروقراطيته تنويع على البلادة التي واجهت بها بعض المفردات مأساة فلسطين برمتها ، التي لا تشكل مأساة « صلاح بركات » سوى مشهد واحد منها . .

وقد كانت الهوامش التي تتلو النص ، ضرورية ، لمساعدة القارىء في ربط ما ورد في هذه الوثيقة ، بمجمل أوراق القضية التي اجتزأت منها :

الأقوال الأولى لصلاح بركات :

(ص ٣٩٧ ت.ب)[١]

فتح المحضر فى يوم ١٩٤٩/٣/١٦ الساعة ١٢,٣٠ ظهراً بسراى النيابة .

نحن أحمد فؤاد وكيل النيابة العسكرية . وحسن عثمان ـ الكاتب .

الآن أثناء وجودنا بمكتبنا بالنيابة أرسلت نيابة بندر شبين الكوم[٢] الجنحة رقم ٣٠٤ سنة ١٩٤٩ وهى جنحة سرقة أتهم فيها المدعو صلاح أحمد بركات بسرقة ملابس ، وقد قام حضرة وكيل نيابة البندر باستجواب المتهم على ظهر المحضر عن سوابقه ذكر لحضرة المحقق أنه ارتكب حادث قتل الشيخ حسن البنا من مدة لا يذكرها وأنه ضربه بمسدس « تومى جن » سبعة رصاصات . بعد نادى المحاماة وأمام جمعية الشبان المسلمين ولم يكن المجنى عليه قد نزل من سيارته وأن ذلك كان فى الصباح المبكر[٣] وأنه كان معه شاب آخر وأنه هو كان عضواً بجماعة الأخوان المسلمين بفلسطين وأنه فلسطينى الجنسية ودخل مصر من مدة وتوجه إلى الاسكندرية وسافر منها إلى مصر[٤] . وبعد القتل ذهب الى الاسكندرية ومكث بها مدة ثم حضر إلى شبين الكوم من عشرة أيام للسؤال عن شخص لا يريد أن يذكره ـ وقد رأينا نسخ كل الجزء المتعلق بهذه الواقعة من استجواب النيابة كالآتي :

س ـ الك سوابقْ ؟ (ص ٣٩٨ ت.ب)

ج ـ لا ولكنى ارتكبت حادثة قتل الشيخ حسن البنا من مدة لا أذكرها .

س ـ وكيف ارتكبت الحادث ؟

ج ـ أنا ضربته بمسدس « تومى جن » سبعة رصاصات بعد نادى المحاماة[٥] وأمام جمعية الشبان المسلمين وكان لسه ما نزلش من سيارة كان راكبها الصبح بدرى لأنى كنت من الأخوان المسلمين بفلسطين .

س ـ ألم يكن أحد موجوداً مع الشيخ حسن البنا ؟

ج ـ كان معاه شاب[٦] وضربت الرصاص وما اعرفش جه فيه حاجة والاَّ لا .

س ـ ومتى وصلت مصر ؟

ج ـ أنا فلسطينى ووصلت مصر من مدة وكان معايه ٣٧٠ جنيه ونزلت اسكندرية وسافرت منها ، إلى مصر ،وبعدما قتلته رحت اسكندرية وقعدت مدة وبعدين جيت شبين الكوم من مدة عشرة أيام تقريباً .

س ـ ولماذا حضرت لشبين الكوم وكيف زاولت عملك بها ؟

ج ـ أنا حضرت للسؤال عن شخصٍ لا أريد أن أذكره فلم أجده فاشتغلت مكوجى[٧] لأنى كنت صاحب مصبغة[٨] بفلسطين ولما عرضت العمل عند المكوجى قبل فعملت معه[٩] إلى أن وقعت السرقة .

س ـ هل اشترك معك أحد في قتل الشيخ حسن البنا ؟ ج ـ لا[١٠].

س ـ هل حرضك أحد على ارتكاب هذه الجريمة ؟ ج ـ لا .

(ص ٣٩٩ ت . ب) .

س ـ وأين أقمت بالقاهرة ؟

ج ـ أنا نزلت فى لوكاندة[١١] ما أعرفهاش ولا أذكر اسمها .

س ـ هل لديك أقوال أخرى ؟ ج ـ لا .

وقد أمر حضرة وكيل النيابة المستجوب بحبس المتهم أربعة أيام احتياطياً على ذمة قضية السرقة ، وقد أشرنا على محضر الجنحة بالنظر[١٢].

ثم استدعينا المتهم ووجدناه شاباً يبلغ من العمر حوالى ٢٥ إلى ٣٠ عاماً أسمر اللون متوسط القامة والضخامة أسود الشعر طويله عليه من الملابس جلباب من الزفير صفراء فاتحة مقلمة بأقلام صفراء وبيضاء أسفلها فانلة قطن بيضاء ولباس أبيض من القطن وفوق الجلباب جرساً كحلى اللون ليست له أكمام ، وعلى رأسه طربوش قديم وينتعل شراباً[١٣] أحمر قاتم وحذاء شمواه أردوازى اللون .

وقد وجدنا برأسه بأعلى جبهته سحجا رضيا مستطيل الشكل أبعاده حوالى ٢ × ١ سم يقع فى اتجاه مستعرض مائل قليلاً لأسفل ولليمين مقابل الحدية الجبهية ليمنى ، كما شاهدنا بأسفل السحج كدماً مزدوجاً مستطيل الشكل بطول